فكشف عنهم، أما ترونه قال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾[١] بعد أن قال له فارتقب، فارتقب ﷺ ووقع، ثم دعا فكشف. والبطشة الكبري يوم بدر. وقد مضت آية الروم وآية الدخان والبطشة واللزام.

بـاب

ومن آياته بمكة، أنه ﷺ لما جمعهم ووعظهم ودعاهم إلي اتباعه ومفارقة ما هم عليه من ديانات آبائهم ردوا قوله، ومشي بعضهم إلي بعض وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا . امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾[٢] وتوعدوه بكثرتهم وعزهم وأموالهم، ووثقوا بذلك، وغرهم ما رأوا من ضعف رسول الله ﷺ ووحدته وتوعدهم رسول الله وهو في تلك الحال، فأنزل الله ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾[٣] فكان كما أخبر وكانت العقبي له.

فتأمل الأمر في ذلك تجده عظيماً لأنه توعدهم بالحرب قبل الحرب وقبل الجماعة وفي حال الضعف، وهو معهم وفي أسرهم وفي قبضتهم، فبعثهم علي قتله واستئصاله، وهيجهم علي بذل المجهود واستفراغ الوسع في مكارهه.

وهذا لا يقع من عاقل إلا أن يكون واثقاً بالله، ساكناً إلي تنزيله ووحيه. وإذا وفيت النظر حقه لم تجد لرسول الله ﷺ في إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين نظيراً في الضعف والوحدة، ومن خالف قومه تلك المخالفة وهاجمهم وأسخطهم ذلك الإسخاط، وأخبرهم بما سيكون من قوته وغلبة الجبابرة من الأمم قبل أن يكون ذلك أو يكون له إمارة تقتضي، فصارت الأمور في القوة والظهور إلي ما قال، فابتدأ ابتداء الشمس وامتد امتداد النهار.

---

(١) سورة الدخان آية ١١.

(٢) سورة ص الآيات ٥-٦.

(٣) سورة ص آية ١١.

بـاب

مما كان بمكة، حين تلا عليهم سورة «اقتربت الساعة»[١] وقص عليهم أمة أمة من الذين كذبوا الرسل، وما نزل بهم من النكال والبوار، إلي أن انتهي إلي قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ. أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ. سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[٢] فكان إدلالهم بكثرتهم وكثرة من يساعدهم علي عداوته ومحاربته، وأنه إن صارت له جماعة فجمعوهم أكثر، والأموال والسلاح والكراع والعدة معهم لا معه، فكان ظاهر الرأي ومقتضي الحزم أن يكون لهم لا له، إلا أن يكون من الله عز وجل مالك القلوب وناقض العادات لأنبيائه، فكان كما قال، وكانت العقبي له.

باب آخر

مما نزل بمكة قوله: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٣] أي شرف ونبل وجلالة، فهو عز ومعجز، ثم قال: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[٤] أي عن شكر هذه النعمة، فكان كما أخبر وكما فسر فإن القرآن بانت آياته، وظهرت بيناته، وقامت حجته، وكملت النعمة علي رسول الله ﷺ وعلي صحابته به، فشرفوا وعزوا بمكانه، وذلك من الأمور البينة الواضحة؛ فإنك تجد الفقهاء والعلماء قد أجلوا القرآن ومن قرأ القرآن ومن عرف علوم القرآن، ولهذا قال عز وجل لقريش في ابتداء المبعث: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾[٥] يريد القرآن، وأنه عز ونبل وشرف، وستشرف به أمم ممن تمسك به ودعا إليه، وقد فاتكم ذلك لإعراضكم، فكان ذلك كما أخبر.

---

(١) أي سورة القمر.
(٢) سورة القمر الآيات ٤٣ - ٤٥.
(٣) سورة الزخرف آية ٤٣، ٤٤.
(٤) سورة الزخرف آية ٤٤.
(٥) سورة ص آية ٦٧-٦٨.

وفي هذا المعني قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ. وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ﴾[١] فتأمل ما في هذا، فإنه ﷺ ما عرف العز بالأبوين كما يعرف من رباه أبواه؛ فإن أباه مات وهو حمل، وماتت أمه وهو رضيع، فآواه الله أكرم إيواء، فلما كمل، آتاه النبوة وعصمه وصانه، وأخبره أن الآخرة خير له من الأولي، فإن آخر أمره في عاجل الدنيا في النصرة والعز، وثواب بالآخرة خير من الأولي؛ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ﴾، أي ذاهباً عن النبوة للا تدري ما هي ولا تعرف القرآن.

وفي مثل هذا المعني قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٢] فإن ذكره ارتفع بالصدق والوفاء وقيام الحجة، فما وجد له أعداؤه كذبة ولا ذلة ولا هفوة مع حرصهم علي ذلك، وما بارت له حجة، ولا زلّت له قدم، ولا أسكته خصم، مع كثرة الخصوم له، وطلب العلل وطول المجادلة.

باب آخر

[التحدى بالقرآن الكريم]

من أعلامه، وهو قوله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[٣] وفي هذا إخبار عن غيوب كثيرة، لأنه قال لكل واحد من الإنس والجن: إنك لا تأتي بمثل هذا القرآن ولا أحد يأتي بمثله في كل حال منفردين ولا مجتمعين، فما أتوا به مع حاجتهم إلي ذلك وشدة حرصهم عليه، أفمن هذا تعجب؟ أم من إقدامه علي الإخبار بذلك وهو لا يعرف العرب كلها ولا يحصي قبائلها ورجالها ونساءها، والفصاحة والبلاغة مثبوتة في رجالها ونسائها وعبيدها

---

(١) سورة الضحي آية ٦ .

(٢) سور الشرح الآيات ١-٤ .

(٣) سورة الإسراء آية ٨٨ .

وإمائها وعقلائها ومجانينها، وقد علم ﷺ أنهم في اللغة والبلاغة قبله، وهو منهم تعلم، وهو عاقل.

فلولا أنه قد تيقن أنهم لا يأتون بذلك لما أقدم علي الإخبار بذلك، سيما والذي ادعاه أمر عظيم وخطب جسيم، وهو النبوة والصدق والعصمة ونفاذ أمره في النفوس والأموال ووجوب طاعته علي كل أحدٍ إلي أن تقوم الساعة، وحجته في ذلك كله هذا القرآن.

وهذه من الآيات التي نزلت بمكة، ولو نزلت بالمدينة أو أين نزلت لكانت الحجة بذلك قائمة لا تأثير للأماكن في ذلك ولا للأزمنة، وإنما نذكر الأماكن لأن الأعداء لما أفلسوا وافتضحوا، أخذوا في تغكيك الملوك والمترفين ومن يحب الرُّخص ومن لم ينظر ويتأمل ويسمع من العلماء، أن هذا القول إنما قاله في آخر أمره وفي آخر عمره.

واعلم أن القرآن حجة من ثلاثة أوجه: فكل سورة منه حجة من طريق الفصاحة والبلاغة.

وهو حجة لما فيه من الإخبار بالغيوب.

وهو حجة لما فيه من التنبيه علي دلائل لعقول، فإن ذلك جاء علي طريقة انتقضت به العادة.

وقد مر بك طرف منه في المصباح، ولعل كثر منه أن يرد عليك، فإنما أنت في ذكر الإخبار بالغيوب وما يجري مجراها، ثم نصير إلي البابين الآخرين وإلي مسائل الخصوم في ذلك والأجوبة عنه إن شاء الله.

من دلائله وإعلامه ﷺ، وهو إخباره عما في الكتب المنزلة وما تضمنته من خلق آدم صلي الله عليه، وما كان له مع الملائكة صلوات الله عليهم، ومع ولده، ومع إبليس، وما كان لنوح مع قومه، ثم إبراهيم وإسحق ويعقوب، والأسباط وعيسي وأيوب، وهرون، وغيرهم من النبيين صلوات الله عليهم أجمعين، وهو ما قرأ تلك الكتب ولا عرف ما فيها ولا اختلف إلي أهلها ولا

اختلفوا إليه، فتعلم أنه ما علم ذلك إلا بوحي الله إليه وإطلاعه عليه، وهي أخبار كثيرة لا يقع الصدق فيها إلا بالوحي من الله عز وجل.

فإن قيل: أين لكم أنه قرأ الكتب، ولا كان يختلف إلي أهلها ولا اختلفوا إليه وأنتم ما أدركتم زمانه، وقد قال له عدوه: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[١] وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾[٢]؟

قلنا: ما ادّعينا أن خصومه ما ادّعوا ذلك عليه، وليس دعواهم حجة عليه، بل لما انقطعوا وقامت حجته ادعوا هذا عليه، ونحن وإن لم نكن في زمانه ﷺ، فقد علمنا أنه ما قرأ هذه الكتب ولا اكتتبها ولا اختلف إلي أهلها ولا اختلفوا إليه، ولا تلقي ذلك عن أحد من الناس، لأنه ما من أحد يطلب فناً من الفنون إلا وله في ذلك تارات وطبقات.

فأول ذلك أن يكون طالباً وسائلاً عمن عنده هذا الأدب وهذا الفن من العلم والأدب، ثم يختلف إلي أهله ويصحبهم، فيكون تارة مبتدئاً، ثم متوسطاً ثم ماهراً متقدماً. وكل هذه الأحوال معروفة معلومة لأهل زمانه، لا يجوز أن يذهب عليهم، ولا يجوز أن يخفي ولا يكتم عن أحد كائناً من كان.

فلو كان قد تعاطاه ﷺ ثم اكتتم عليه، لكان ذلك من أكبر آياته وأعظم معجزاته، فإذا العادة قد انتقضت به، فقد أعطاه الخصم أكثر مما ادعي، ولو جاز أن يخفي ذلك ويتستر علي أحد من الناس، لما استتر ذلك علي محمد ﷺ لأن عدوه وطالبه والمتتبع لأمره والمفتش عن أحواله من قريش والأقربين من أهله ومن دهاة اليهود والنصاري وغيرهم كثير، والطلب منهم شديد ودعواه النفسية عظيمة، وقد ادعي عليهم الفرية والكذب ولنفسه الصدق، وحجته عليهم ألا يكذب في شئ ولا يناقض، ثم إن الذين اتبعوه لأنه نبي وصادق. وقد

---

(١) سورة الفرقان آية ٥ .

(٢) سورة الفرقان آية ٤ .

عرف عدوه ووليه منشأه ومتقلبه ومثواه، ومعهم سافر، وبينهم تربي ونشأ، وأزواجه إنما هن بنات أعدائه وأوليائه الذين اعتقدوا صدق نبوته، وهن ممن يعتقد صدقه ونبوته، فمن هذه سبيله، يتعلم الكتابة بالقلم الواحد أو بالأقلام المختلفة، ويكتب ويقرأ، ويختلف إلي أهل هذه اللغات ويصحبهم ويأخذ عنهم، ويتستر ذلك علي أهله ونسائه وعدوه ووليه؟ هذا لا يعتقده من تأمل الأمور وتدبرها. بل لو كان ذلك له ﷺ يوماً واحداً أو ساعة واحدة، لعلم به الأولون والآخرون للأحوال التي اختص بها مما قدمنا ذكره. ولا فرق بين من ادعي هذا عليه، أو ادعي أنه قد كان مرة تهود وأظهر ليهودية، وخرج فأقام مرة ببابك، ومرة ببيت المقدس، وأنه كان مرة تنصر ولبس المسوح وأقام في البيع، وخرج مرة وأقام ببلاد الروم وصام صوم النصاري وأقام أعيادهم وكان يحلق وسط رأسه كصنع الرهبان، وأن ذلك كله تم له وخفي علي أهله ونسائه وعدوه ووليه.

فتأمل رحمك الله هذه الآية فإنها عظيمة جليلة، ولو لم يكن له إلا هي لكفت وأغنت. وانظر كيف يقول، قد اقتص قصة نوح عليه السلام ثم قال في آخرها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وانظر كيف يقول له إن هذا ليس من علمك ولا من علم قومك، والعدو والولي يسمع ذلك.

وتأمل قوله عز وجل في قصة يوسف عليه السلام ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[2] ثم عزاه وقال له: آيتك بينة وحجتك قائمة وأن عصوك، فما ها هنا شبهة في مخالفتك، ولا أمر يصد عن اتباعك، ولست أول من قامت حجته فلم يتبع، فقال له: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ. وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ

---

(١) سورة هود آية ٤٩ وما بعدها.

(٢) سورة يوسف آية ١٠٢ .

هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(١).

وانظر كيف يدل ويستطيل ويصول علي العدو والولي بأن هذا إنما ناله بالوحي، وأنه ما قرأ كتاباً ولا خط، وأنه قد كان في غفلة من هذا فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾(٢).

وقال له في أول سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾(٣). ثم يقول في آخر السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

وتأمل قوله عز وجل في سورة القصص: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾(٥) إلي قوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وانظر إلي هذا الاحتجاج بأنه ما نال هذا ولا عرفه إلا بوحي من الله.

وانظر إلي قوله في سورة طه: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾(٦). فتأمل هذا الاستعلاء علي العدو والولي بأن من آياته وعلاماته ما في الصحف الأولي.

وكان مما طعن به ابن الراوندي في هذه الآية أن قال: إن كان معرفته

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٤ .
(٢) سورة العنكبوت آية ٤٨ .
(٣) سورة يوسف آية ٣ .
(٤) سورة يوسف آية ١١١ .
(٥) سورة القصص الآيات ٤٤-٤٦ .
(٦) سورة طه آية ١٣٣ .

بهذا دلالة علي نبوته فمعرفة اليهود بذلك دلالة علي نبوتهم، وهذا جهل من هذا الأحمق، لأن اليهود قد قرأوا ذلك وكتبوه وأخذوه عن آبائهم وشاهدوه فلا يكون حجة لهم. وهذا ما قرأه ولا كتبه ولا أخذه عنهم ولا عن أحد من الناس كما دلت عليه العقول، فهو حجة عليهم وعلي غيرهم، ولو أن إنساناً ادعي النبوة، وجعل دلالته بأن أخبرك عن كتاب معك ما قرأه ولا وقف عليه وإنما وقفت أنت عليه فيما لا يقع بالاتفاق ولا بالحدس، لكان ذلك دلالة في نبوته ولم يكن دلالة لك، وكذلك أذا أخبرك عما أكلت وشربت وادخرت.

ولكن اشتبه علي هذا الملحد لفرط جهله وبعده من التحصيل، ولولا أن الأشعرية والرافضة والنصاري والزنادقة يرون هذا الرجل بعين المحصلين لما ذكرنا أسئلته لركاكتها، ولكنه صنف شيئاً للمشبهة، وشيئاً للمجبرة، وشيئاً للرافضة، فسروا به لنقصهم، وشهدوا له بالحذق لفرط غباوتهم وأنهم لا يعرفون الإسلام وأهله، فمن أظهر لهم التصويب قبلوه لضعفهم وسوء أحوالهم.

وقبله اليهود والنصاري وحذقوه، لأنه شتم محمداً رسول الله وأظهر تكذيبه، وهو فقد شتم إبراهيم وإسحق ويعقوب وموسي وهارون ويحيي وعيسي وجميع النبيين صلوات الله عليهم أجمعين وكذبهم، ولكن اليهود والنصاري لا حجة ولا بصيرة في مخالفتهم المسلمين، فمن عادي محمداً ﷺ تولوه وإن كان عدواً لأنبيائهم، كما لا بصيرة لأهل بدع الإسلام من المشبهة والمجبرة والرافضة. وهذه السور مثل القصص وهود ويوسف من المكيات فاعلم ذلك.

باب آخر

[إخباره عن النصرانية ومذاهب النصارى]

من آياته وأعلامه، وهو إخباره عن النصرانية ومذاهب النصاري من هذه الطوائف الثلاث منهم، وهي الباقية القائمة الراهنة في قولهم أن المسيح عيسي ابن مريم هو الله، وأن الله ثالث ثلاثة؛ فإن هذه الطوائف الثلاث من

الملكية واليعقوبية والنسطورية لا يختلفون في أن المسيح عيسي بن مريم ليس بعبد صالح ولا بنبي ولا برسول، وأنه إله في الحقيقة، والله في الحقيقة، وأنه هو خلق السموات والأرض والملائكة والنبيين، وأنه هو الذي أرسل الرسل وأظهر علي أيديهم المعجزات، وأن للعالم إلهاً هو آب والد لم يزل، غير مولود، وأنه قديم خالق رازق، وإنه شؤ ابن مولود، وأنه ليس بآب ولا والد، وأنه قديم حيّ خالق رازق، وإله هو روح قدس ليس بآب والد ولا اين مولود وأنه قديم حي خالق رازق، وأن الذي هو ابن نزل من السماء، وتجسم من روح القدس ومن مريم البتول، وصار هو ابنها إلهاً واحداً ومسمي واحداً وخالقاً واحداً ورازقاً واحداً، وحبلت به مريم وولدته، وأخذ وصلب وألم، ومات ودفن،وقام بعد ثلاثة أيام وصعد إلي السماء وجلس عن يمين أبيه. فحكي قولهم في أن المسيح هو الله وأن الله ثالث ثلاثة.

وهكذا مذهبهم في الحقيقة ولا يكادون يفصحون به، بل يدافعون عن حقيقته ما أمكنهم، حتي أن أرباب المقالات وأهل العناية به من المصنفين لا يكادون يحصلون مذهبهم، وإنك لتجد النظارين منهم والمجادلين عنهم إذا سألتهم عن قولهم في المسيح، قالو': قولنا فيه أنه روح الله وكلمته مثل قول المسلمين سواء، أو يقول: إن الله واحد.

وتجده ﷺ وقد حكي حقيقة مذهبهم، ولم يكن من المجادلين ولا من المتنبئين، ولا ممن يقرأ الكتب ويلقي أهلها. ولا من المتكلفين، ولا كانت مكة والحجاز إذ ذلك بلاد فيها شئ من هذا، فانتشر هذا عنه ﷺ، وفتش الناس عنه بعد ذلك فوجدوا الأمر كما قال وكما فصل، بعد الجهد وطول الاستقصاء في الطلب والتفتيش. وما أكثر ما تلقي منهم فيقول: ما قلنا في المسيح أنه الله، ولا قلنا: إن الله ثالث ثلاثة، ومن حكي هذا عنا فقد أخطأ وكذب، ليعلم أن وقوف محمد ﷺ هذا إنما هو من قبل الله عز وجل، وأن ذلك من آياته.

فإن قيل: فإن قولهم في هذا وأن الله ثلاثة أقانيم جوهر واحد، كقول المسلمين بسم الله الرحمن الرحيم، وكقولهم في االله أنه حيّ قادر عالم.

قيل له هذا غلط علي النصاري، وليس قولهم في التوحيد من قول المسلمين بسبيل، وإنما يقول هذا من يروم المغالطة والفرار من فحش المقالة، لأن الله عند المسلمين هو الرحمن وهو الرحيم وهكذا العالم القادر، وهي ذات واحدة لها صفات كثيرة، وأسماء كثيرة، وعند النصاري، أن الله الوالد ليس هو الإبن المولود، ولا يجوز أن يكون الأب الوالد ابنٌ مولوداً، ولا الإبن المولود أباً والداً، وكذا روح القدس، ومن قال غير هذا فليس من النصاري؛ فإن بليت منهم بمن هذه سبيله أعني الجحود لهذه المقالة الفاحشة فقل: إن كنت تريد أن هذا قولك وكذا تختار فما يدفعك عن هذا؟ فإما أن يكون هذا قولاً للنصاري فهذا كذب وبهت، ولو أسلم نصاري عصرنا كلهم لما خرج هذا من أن يكون قولاً لمن سبق وتقدم من هذه الطوائف الثلاث.

فاعلم أن هذا هو مذهبهم في التثليث، قد حصل العلم به ولهم فيه ضرب أمثال، وذلك في تسابيحهم وأقاويلهم في عباداتهم، ألا تري أنهم يقولون في تسبيحة القربان في الساعة التي يكونون فيها خاضعين يتوقعون بزعمهم نزول روح القدس لقبول فاتور القربان ليتم علينا وعليكم نعم الرب يسوع المسيح ابن مريم ومحبة الله الآب ومشاركة روح القدس أبداً إلي دهر الداهرين.

ويقولون في تسبيحتهم التي يسمونها تسبيحة الإيمان التي وضعت بنيقية من بلاد الروم، وهذا كان بعد المسيح عليه السلام بنحو ثلاثمائة سنة، حين جمعهم قسطنطانوس ابن فيلاطس مك الروم، الذي أمه هيلانه الحرّانية الفندقية، جمعهم ليعملوا تقريراً في إيمانهم يحملون الناس عليه ويأخذونهم به فمن أبي قتلوه.

وأجتمع عنده نحو ألفي رجل، فقرروا تقريراً ثم رفضوه، ثم اجتمع ثلثمائة رجل وثمانية عشر رجلاً وهم يسمونهم الآباء، فقرروا هذا التقرير، وهم يسمونه سنهودس، فكان تقريرهم لهذه التسمية وهي أصل الأصول عند جميع هذه الطوائف لا يتم لأحد منهم عندهم إيمان إلا بها وهي:

«نؤمن بالله الأب الواحد،، خالق ما يري وما لا يري، وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله بكر أبيه وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده اتقنت العوالم وخلق كل شئ، الذي من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس ومن مريم البتول، وصار إنساناً، وحبلت به مريم ودفن وقام في اليوم الثالث كما هو مكتوب، وصعد إلي السماء وجلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجئ تارة أخري للقضاء بين الأموات والأحياء.

ونؤمن بالرب الواحد روح القدس، روح الحق الذي يخرج من أبيه، روح محبيه، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قديسية سليحية جاثلقية، وبقيام أبداننا، وبالحياة الدائمة إلي أبد الآبدين». فتأمل هذا الشرح وهذا التفصيل والكشف في التثليث والتشبيه، وكيف يعتقدون في الله حقيقة المدبرين المصنوعين من النزول والصعود والولادة وغير ذلك.

فإن قالوا: فإنا لا نقول إنها ثلاثة آلهة، فكيف يحكون عنا التثليث؟ قلنا لهم: إنكم قد أعطيتمونا معني التثليث وأشعتموه واستوفيتم حقائقه، ومنعتم بعض العبارة عنه، ألا ترون أنكم تقولون إله هو أب والد حيّ قادر قديم عالم خالق رازق، وإله هو إبن مولود كلمة حي قديم خالق رازق ليس بآب ولا والد ولا يجوز أن يكون والداً ولا أباً، وإله روح قدس حي عالم قديم خالق رازق، ثم قلتم هي ثلاثة أقانيم، فقلتم في كل واحد منها أنه إله ورب وقديم، وامتنعتم من الإقرار بالجملة وقد أعطيتم التفصيل.

وما مثال ذلك إلا كمن قال: عبد الله العربي رجل وإنسان وجسم وشخص، وخالد الفارسي رجل وإنسان وجسم وشخص، وريد الرومي رجل وإنسان وجسم وشخص، قلنا: فهؤلاء ثلاثة رجال، وثلاثة أناس، وثلاثة أشخاص، وثلاثة أجسام. فقلتم: لا، بل هم رجل واحد. قلنا: لا يؤثر امتناعكم من إطلاق هذه العبارة في شئ قد أشيعت حقيقته. وفيهم من يمتنع من أن يقول في كل واحد من هذه الثلاثة أنه غير صاحبه، ثم يقولون: ما شبهنا ولا

مثلنا، فكانوا كالمشبه الذين يقولون: إله يصعد وينزل ويقعد علي العرش، ثم يقولون: ليس كمثله شئ.

والذي يمنع النصاري من إطلاق القول بأنها ثلاثة آلهة متغايرة مختلفة وإن كانوا قد أعطوا معني ذلك، إلا لأنهم صدقوا بكتاب الله عز وجل التي صدق بها المسيح عليه السلام، وهي مملوءة بتوحيد الله وتفرده بالقدم، وأنه لا يشبه الأشياء، وإنما هذه البدع ابتدعوها بعد المسيح، فأرادوا حمل بدعتهم في الشرك علي ما في كتب الله فلم يتم ذلك وحصلوا علي محض الشرك والتشبيه.

فإن قيل: قد لعمري صدقتم فيما حكيتم عن التثليث، فإن الملكية تقول فيه: إنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه، وإن التقتل والصلب والولادة وقعت عليه بكماله.

واليعقوبية تقول: حبلت مريم بالإله، وولدت الإله، وقتل الإله، ومات الإله.

فما عندكم في النسطورية؟ فإنهم قد قالوا في المسيح أنه مركب من نوعين وأقنومين[1] وطبعين، من إله ومن إنسان، وإن الولادة والقتل إنما وقعتا بالإنسان وهو الذي يسمونه الناسوت.

قيل له: لو كانت النسطورية تقول في المسيح كما يقول المسلمون لما قدح ذلك في الخبر ولا أثر في العلم لأن التثليث قد وقع، كيف والنسطورية ترجع إلي القول في المسيح إلي قول إخوانهم من الملكية واليعقوبية، فيقال للنسطورية قد قلتم إنه إله حق من إله حق من جوهر إبيه، وقلتم إنه إله تام من إله تام، ثم قلتم إن لاهوته مولود من قبل الأب وناسوته مولود من قبل الأم، والولادة قد أحاطت به من كل وجه ومن كل جهة؛ وأيضاً فإنكم تمدحون الإله بالولادة كما يمدحه المسلمون بتنزيهه عن الولادة، وتقولون لو لم يكن والداً

---

(١) في الأصل أقنيمين.

لكان عقيماً، وكل حي لا يكون والداً فإنما ذاك لنقص وآفة وعاهة. فلا ينبغي أن تغالطوا عن حقيقة قولكم.

ثم يقال لهم: أخبرونا عن مريم هل حبلت بالمسيح في الحقيقة، وولدت المسيح في الحقيقة، وربت المسيح وأطعمت المسيح في الحقيقة، وهي أم المسيح في الحقيقة؟ فإن قالوا: ولدت ناسوت المسيح أو حبلت ناسوت المسيح قلنا: لم نسألكم عن هذا، فإن ناسوت المسيح عندكم ليس هو المسيح وإنما المسيح هو اللاهوت، ولاهوت المسيح عندكم ليس هو المسيح إنما هما مجموعهما المسيح، أجيبونا.

فإن كانت مريم قد ولدت المسيح في الحقيقة وحبلت بالمسيح في الحقيقة، فقد حبلت بالإله والإنسان وولدت الإله والإنسان، وهي أم الإله والإنسان، وقد قتل الإله والإنسان، وألم الإله والإنسان، ومات الإله والإنسان؛ فقد تبين أن قولكم وقول الملكية واليعقوبية في ذلك سواء. وإن قالوا ما ولدت المسيح في الحقيقة قلنا لهم: فليس هذا قول أحد من النصاري ولا قول المسلمين أيضاً بل هو قول اليهود، فإنهم قالوا: إن مريم ما حبلت به.

وإن قالوا: نقول هي أم المسيح علي المجاز، ومات المسيح في المجاز، قلنا لهم: لم نسألكم عن المجاز، إنما سألنا عن الحقيقة، فإنه علي هذا التقدير ربما أيضاً يكون حمل مريم من غير ذكر مجاز، وإحياؤه الموتي مجاز، وجميع ما يدعونه له مجاز.

وهذا لا سبيل إليه، لأنهم إن قسموا أفعاله من لاهوته وناسوته وجب ذلك كله، لأنه إذا أحيا الموتي وأظهر الآيات فإنما ذلك فعل اللاهوت واللاهوت وحده ليس بمسيح، واللاهوت ما رآه الناس فلا يجوز أن يقال رأي المسيح، وإذا أكل وشرب ونام واستيقظ فذلك فعل الناسوت والناسوت وحده ليس بالمسيح، فقد وجب جميع ما قدمناه.

وهم لا يصيرون إليه ولا يلتزمونه، ومن صار إليه خرج عن النصرانية وعن جميع أقوال المثلثة. وقد علمت أن حقيقة قولهم ما في تسبيحة إيمانهم وهي أصل الأصول، وليس لأحد من طوائفهم عنها ولا عن شيء منها معدل،

وإنما وضـعت حين صـار الملك إلي هذا القـول، وحين خـالفـهم آريوس[١] الإفصاح بالمذهب ولرفع التأويل والأوهام في المقالة.

وعند هذه الطوائف الثلاثة أن المسيح صار مسيحاً وإلهاً خالقاً رازقاً معبوداً حين بشر الملك أمه وساعة الحمل به، فاتحد به الإله فصار جميعاً منذ ذلك مسيحاً واحداً وإلهاً واحداً، وأن الاتحاد ما انتقص عندهم ولا بطل، ولا خرج عن المسيحية والإلهية لا في حال الحبل ولا في حال الولادة ولا في حال النوم ولا في حال الأكل ولا في حال البول والتغوط ولا في حال المرض ولا في حال القتل ولا في حال الموت، وأنه في جميع هذه الأحوال مسيح وإله ورب معبود وخالق ورازق ومدبر.

ويقولون: هو أحيا نفسه بعد الموت لأنه محال عندهم أن يحي الموتي غير المسيح، وقد علمت تسبيحة الإيمان وتفصيلها فارجع إليه، ففيه أتم كفاية لتعلم مغالطة النسطورية وجميع من يجادل عن النصرانية. وقد قال فولوص[٢] -وهم عندهم فوق الأنبياء وقد ذكر صنيع اليهود بالمسيح: لو علموا لما صلبوا رب المجد الذي له الحمد والبركات أبد الدهر. وقال أيضاً: الذي ليس بمعاين عوين،والذي ليس بمحسوس حس، والعالي علي الزمان أبتدئ، وابن الله صار ابن الإنسان، وألم الذي لم يكن يألم ووالده الله، فتأمل ما في هذا فإنه يفصح بأن الله لم يكن يعاين فصار يعاين، ولم يكن يحس فصار يحس ويدرك، وأنه كان قبل الزمان فابتدئ وصار في الزمان، وألم الذي لم يكن يألم، وابن الله صار ابن الإنسان، وصار ابن الإنسان ابن الله ووالده، وهذه صفات المسيح الذي هو عندهم الله وابن لله. قالوا: وقد قال الآباء - وقد ذكروا ما صنع فيلاطس الرومي واليهود-: أنهم لما صلبوا رب المجد عرفوه.

---

(١) في الأصل أيريوس وربما كان تصحيفا من الناسخ ولريوس كاهن سكندرى.

(٢) يعنى بولس، وكان يهوديا ومن أشد أعداء المسيحية، ثم اعتنق المسيحية بزعمهم وكتب مجموعة من الرسائل ألحقت فيما بعد بالإنجيل وقد أدخل كثيرًا من العقائد الوثنية إلى النصرانية، ويظهر ذلك جليا مما ذكر بالمتن أعلاه.

قالت النصاري هذه كلها أقاويلنا وفيها حقيقة مذهبنا[١].

قالوا وقد قال الفاضل ياوانس: المساوي للأب جاء إلي العالم في الرحم البتول، وكان قبل أن يكون آباؤه إبراهيم وإسرائل وداود، وهو ابن الله قبل أن يدعي إبن إبراهيم وداود. وقالوا: فهذه حقيقة ديننا، فإن جاء فيه أن الله إنسان أو من جنس الناس، أو أنه يتقلب في الصور والهيئات وينتقل ويتشكل لم ننفر من ذلك، ولم ندع ما اسسه الآباء والقدوة لما يوجب الجدل ويلزم في النظر.

فتأمل هذا، وقولهم: المساوي للآب جاء إلي العالم في الرحم البتول وكان قبل أن يكون آباؤه إبراهيم وإسرائيل وداود وهو ابن الله قبل أن يدعي إبن إبراهيم وداود، لتعلم أن اعتقادهم وقولهم أن هذا الذي ولدته مريم هو ابن الله وهو الله، وأنه مثل الأب الذي في السماء علي العرش عندهم، وأن هذا هو الذي لم يزل، وأن الذي حدث وتجدد ولادة مريم له، وأن إبراهيم وإسرائيل وداود إنما صاروا آباءه من قبل أمه لأنها من بني إسرائيل[٢]، وأنه كان ابن الله قبل أن يكون ابن إبراهيم وإسرائيل وداود.

قالوا: وقد قال علماؤنا ومن هو القدرة عند جميع طوائفنا: يسوع في البدء لم يزل كلمة، والكلمة لم تزل لدي الله، والله هو الكلمة، ويسوع هو عيسي بالسريانية قالوا: فذاك الذي ولدته مريم وعاينه الناس وكان بينهم هو الله وابن الله وهو كلمة الله.

قالوا: وقد قال يوحنا السليح: إنا نبشركم بالذي لم يزل من قبل، وأنا رأيناه بأعيننا، وحسسناه بأيدينا. قالوا: فما فيمن هو الحجة لجماعتنا إلا من يكشف الأمر كشفاً لا يتعرض لتأويله إلا من يكابر عقله.

---

(١) وهذا ما يؤكد ما ذهبنا إليه

(٢) في الإنجيل نسب إلى داود من طريق يوسف النجار وليس من طريق مريم، والصحيح أنه ينسب من طريق أمه لأن يوسف النجار ليس أباه كما تدعى اليهود ولكنه كان خطيب مريم عليها السلام.

فعندهم أن القديم الأزلي خالق السماوات والأرض هو الذي عاينه الناس بأبصارهم، ولمسوه بأيديهم. قالوا وقد قال رمياً النبي وقد ذكر المسيح والبشارة به: هذا إلهنا ولا نعوذ معه غيره، وأنه في آخر الزمان تراءي علي الأرض وتردد مع الناس، فتأمل هذا الكشف.

قالوا: وقد قال بطرس وهو بكر إيماننا وأصل بيعتنا لما سئل عن ابن الله لا عن ابن الناس، وعن كلمة الله لا عن كلمة الناس فقال: هو الذي كان بين الناس وتردد معهم، وأبرأ الذين نكأهم الشرير.

قالوا: وقد خاطب الناس من بطن أمه مريم، فقال للأعمي: أنت مؤمن بابن الله، قال الأعمي: ومن هو حتي أؤمن به؟ قال: قد رأيته وهو المخاطب لك، قال: آمنت ياسيدي، وخر ساجداً. قالوا: فما الذي بقي من الإفصاح بأن الذي حبلت به مريم وكان في بطنها هو الله وابن الله وكلمة الله.

قالوا: وقد قالت أم يحيي بن زكريا- وقد دخلت علي مريم وهي حبلي بالمسيح، وأم يحيي حبلي به- أن الذي في بطني قد سجد للذي في بطنك. قالوا: فما الذي يبقي في البيان في أن الإله المعبود الذي هو الله وابن الله وكلمة الله هو الذي حبلت به مريم وولدته.

قالوا: ولما عمّده يوحنا في الأردن تفتحت أبواب السماء ونادي الأب: هذا ابني وحبيبي الذي سررت به نفسي. ونزل روح القدس في صورة حمامة ورفرفت علي رأس المسيح، قالوا: فالمتعمد هو الله الإبن، والمنادي هو الأب، والنازل هو روح القدس، وانظر كيف يفردون كل واحد منهم بصنع غير صنع صاحبه.

قالوا: وفي البشارة به حين قال جبريل لمريم: ها أنت تحبلين وتلدين، قالت له: كيف يكون هذا وما مسني رجل؟ فقال لها: ربنا معك، وإلهنا معك، وأيدي العلي تحل عليك، وروح القدس تأتيك، والذي يولد منك قدوس وابن الله يدعي،قالوا: فقد خبرها بأنها تحبل بإبن الله لا بإبن الناس، وأنها تلد ابن الله لا ابن الناس، وأن الله معها.

قالوا ولا نريد بقولنا معها ومع ابنها بمعني التأييد والنصر والمعونة كما يكون الله مع الأنبياء والصالحين والمؤمنين، لأن المسيح عند طوائفنا الثلاث ليس بنبي ولا بعبد صالح، بل هو رب لأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم وناصرهم ومؤيدهم ورب الملائكة؛ ولا هو معها ومع ابنها بمعني الخلق والتدبير والتقدير كما يكون مع سائر إناث الحيوان من الناس والكلاب والحمير والخنازير بالخلق والصنع والتقدير، ولكنه معها لحبلها به ولاحتواء بطنها عليه، فلهذا فارقت جميع إناث الحيوان، وفارق ابنها جميع النبيين، فصار الله وابن الله الذي نزل من السماء وحبلت به مريم وولدته والمولود منها إلهاً واحداً ومسيحا واحداً ورباً واحداً وخالقاً واحداً منذ وقت بشارة جبريل عليه السلام لها، لا يقع بينهما فرق، ولا يبطل الاتحاد بينهما بوجه من الوجوه، ولا في الحبل، ولا في الولادة، ولا في حال نوم، ولا مرض ولا صلب، ولا موت، ولا دفن، بل هو متحد به في حال الحبل، فهو علي تلك الحال: مسيح واحد، وخالق واحد وإله واحد، وفي حال الولادة كذلك وفي حال الموت والصلب كذلك.

قالوا: فمنا من يطلق في لفظه وعبارته حقيقة هذا المعني، فيقول: مريم حبلت بالإله، وولدت الإله، ومات الإله؛ ومنا من يمنع هذه العبارة ويعطي معناها وحقيقتها، فيقول: مريم حبلت بالمسيح في الحقيقة، وولدت المسيح في الحقيقة، وهي أم المسيح في الحقيقة، والمسيح إله في الحقيقة، ورب في الحقيقة، وابن الله في الحقيقة، وكلمة الله في الحقيقة، لا ابن لله في الحقيقة إلا هو، ولا أب للمسيح في الحقيقة إلا هو، ولا أم للمسيح إلا مريم. فهؤلاء يوافقون في المعني قول من قال فيها: إنها حبلت بالإله، وولدت الإله، وقتل الإله وألم الإله، ومات الإله، وإنما يمنعون اللفظ والعبارة فقط.

قالوا: وإنما منعنا هذه العبارة التي أطلقها إخواننا لئلا يتوهم علينا إذا قلنا: حبلت بالإله، وولدت الإله، ومات الإله، وألم الإله، إن هذا كله حلّ ونزل

بالإله الذي هو أب، ولكنا نقول: حلّ هذا كله ونزل هذا كله بالمسيح، والمسيح عند طوائفنا إله تام، وإله حق من إله حق، من جوهر أبيه.

قالوا: لا نريد بأنه معنا علي معني النصر والتأييد ولا معني الخلق والتدبير لأنه مع جميع الأنبياء والصالحين كذلك، ومع جميع المخلوقات بالخلق والتدبير، وكأن يكون قولنا وقول المسلمين و ليهود. واحداً في التوحيد.

قالوا: والآباء والقدوة منا يقولون: ابن الله يدعي ابن الإنسان، وابن الإنسان يدعي ابن الله، وآدم الجديد هوالإله الألم لذي قتل ومات.

قالوا: وعندنا أن المسيح قال: ابن البشر هو رب السبت. وقال أيضاً: أنا بأبي وأبي بي، ولا يعرف أحد الآب إلا الإبن، والإبن لا يعرفه إلا الأب، وإنك إله بي وأنا بك. وقال: أنا في أبي، وأبي في. وقال: أنا قبل إبراهيم، وقد رأيت إبراهيم وما رآني، فقال له اليهود: كذبت، كيف تكون قبل إبراهيم وأنت من أبناء ثلاثين سنة، فقال: أنا عجنت طينة آدم وبحضرتي خلق، وأنا أجيء وأذهب وأجيء، قالوا وهذا القول عندنا للمسيح في الحقيقة، ولو كان قولاً للإله الذي ليس هو المسيح لما كان له معني وعندنا أن المسيح ابن آدم وربه وخالقه ورازقه وابن إبراهيم وربه وخالقه ورازقه، وابن إسرائيل وربه وخالقه ورازقه، وابن مريم وربها وخالقها ورازقها.

قالوا: وقد اعتل لنا من يناظر عنا بأن الله ولد في الحقيقة، وأن تولد ابنه منه كتولد ضياء الشمس من الشمس وكتولد الكلمة من العقل، ونحن فما قلنا: إنه والد وله ولد في الحقيقة بهذا الاعتلال، بل لما قدمنا من قول الآباء والقدوة. وعلي أن هؤلاء قروا بهذا القول من التشبيه لله بالمتناسلين المتناكحين من المخلوقين، فشبهوه بالموات والجماد، فوقعوا في شر ما هربوا منه ودفعوا الضرورة، لأن مريم قد ولدت المسيح إله الكل ولادة صحيحة في الحقيقة معقولة، ولادة الأحياء الناطقين بغير تناكح ولا تناسل، ومن قال إن مريم ما حبلت بالمسيح في الحقيقة، ولا ولدت المسيح في الحقيقة، ولا هي أم المسيح

في الحقيقة، ولا رباً للخلائق في الحقيقة. فليس من الملكية ولا من اليعقوبية ولا من النسطورية.

قالوا: وقد قال القدوة عندنا: إن اليد التي سمّرها اليهود في الخشبة هي اليد التي عجنت طين آدم وخلقته، وهي اليد التي شبرت السماء، وهي اليد التي كتبت التوراة لموسي.

وقالوا: وقد وصفوا صنيع اليهود بالمسيح: إنهم لطموا الإله وضربوه علي رأسه، وعجب لإله يضرب علي رأسه. وتعالوا فانظروا إلي الإله يلطم ويضرب علي رأسه.

قالوا: وفي بشارة الأنبياء، أن الإله يجيء، وتحبل به إمرأة عذراء وتلده، ويؤخذ ويصلب ويقتل.

قالوا: ولنا سنهودس قد اجتمع عليه نحو سبعمائة من الآباء والقدوة، فيه أن مريم حبلت بالإله وولدته وأرضعته وسقته وأطعمته، وهذا دون ما في تسبيحة الإيمان من الولادة والقتل والألم والصلب والموت والدفن.

قالوا: وأقاويلنا كلها من أولها إلي آخرها التي ذكرناها لكم من أصل ديننا وحقيقة مفصحة بذلك، فهذه حقيقة ديننا وإيماننا ولنا من هذا المعني من السرياني والعربي أكثر مما ذكرناه.

فهذا يرحمك الله كما تري وتسمع، فلولا أن رأينا قوماً عقلاء يقولون هذا، وسمعناه منهم حين فتشنا عما قاله الله وحكاه عنهم فنطقوا به بعد الجهد وأخرجوه من غوامض أسرارهم، لما صدق الناس أن في الدنيا من قال هذا أو نطق به.

وإذا تأمل العاقل الأمور وفتش وطال بحثه وجهد، رأي الجهل في الأمم والأقاويل المشتملة علي الحمق كانت في الأمم قبل الإسلام.

فالفلاسفة تدعي في شذه الأجسام الجماد والموات من الشمس والقمر والكواكب والسماء أنها حية عاقلة مميزة تخلق وترزق وكانوا لها عابدين، والنصاري كما قد علمت.

والمجوس عندها أن الإله غالبه الشيطان ونزل إلي الأرض، وكانت الحرب بينهما ألف سنة، وأن الشيطان غلبه وحاصره في جنته مع ملائكته وأن الملائكة عند ذلك سعوا بينهما في الصلح ووقعت المهادنة بينهما علي شرائط معروفة مذكورة عند من حكي المقالات، وشرحها يطول[١]، ثم رجع عندهم[٢] بملائكته إلي سمائه غير أنهم ما قالوا قتل كما قالت النصاري، ولا بلغوا إلي هذا وإن كانوا قد فحشوا في القول.

وقد كانت القبط تقول بالإلهية فرعون مصر. والمنانية من الزنادقة فقولها في نحو من قول المجوس، وأقاويل الهند في لبدّ معروفة.

فلما جاء الإسلام بتلك الأنوار وبأن من كان جسماً ومحتاجاً لا يكون إلهاً ولا يفعل كما قدمت لك في «المصباح»، وهو أيضاً مذكور في غيره. وكان من رحمة الله بخلقه أن سلطان الإسلام ظهر علي الأديان كلها، وكان حملة السلاح[٣] هم الأتقياء والأولياء العلماء الفقهاء، فاستحيا أهل البدع منهم فانقبضوا وكانت لهم هيبة التقوي. فمات أولئك رضي الله عنهم وطال العهد،

وصار بعدهم ملوك جبابرة غير أنهم كانوا حملة الإسلام.

ثم لم يزل الأمر يتناقص، فصارت السيوف كلها علي الإسلام، ومات أهله، وصار في الزندقة والإلحاد السيف والملك فعادوا إلي ما كانوا عليه من الجاهلية. ألا تري أن من بالأحساء من القرامطة والباطنية[٤] لما غلبوا شتموا الأنبياء، وعطلوا الشرائع، وقتلوا الحجاج والمسلمين حتي أفنوهم، واستنجوا بالمصاحف والتوراة والإنجيل، وجاؤوا بزكيره الأصفهاني المجوسي وقالوا هذا هو الإله في الحقيقة وعبدوه[٥]، وكان لهم معه ما هو مذكور معروف.

---

(١) في اعتقاد القبط (هكذا في هامش المخطوط).

(٢) أى عند المجوس.

(٣) يقصد المجاهدين في سبيل الله.

(٤) بعض الفرق المنحرفة الخارجة عن الإسلام كانت تتستر بالتشيع وليسوا منهم لأن معتقداتهم وأفكارهم تختلف عن عقائد الشيعة تماما.

(٥) في هامش المخطوط (جاء القرامطة بزكيره الأصفهانى المجوسى وقالوا: هذا هو الإله).

ومثل هذا صنع أبو القاسم الحسن بن حوشب بن زاذان الكوفي النجار حين ظهر بجبال لاعة من أرض اليمن، وكذا صنع من كان منهم بالجنّد وعدن من أرض اليمن وسبوا العلويات، وكل هؤلاء كانوا في أول أمرهم يخدعون الناس بأنهم شيعة، وأن المهدي أرسلهم.

وكذا صنع من كان منهم برقادة والقيروان من أرض المغرب، إلي أن قام أبو يزيد مخلد بن كداد بمن معه وحاربهم خمس سنين وضيق عليهم، كما صنع الأصفر بأهل الإحساء، فلما انكشف أمر أبي يزيد عمن بالمغرب كفوا عن المكاشفة للعامة بشتم الأنبياء وتعطيل الشرائع، وصاروا يخدعون الناس سراً وينقلونهم عن الإسلام بالحيل والأيمان من حيث لا يشعرون شيئاً شيئاً، وانبثوا وانبسطوا، وبثوا ذلك في ممالكهم، ويقصدون بدعوتهم الديلم والأعراب وكل من يقل بحثه ونظره وله رغبة في الدنيا وشغل بها. ثم يقطعونهم عن البحث والنظر بالعهود والإيمان المغلظة، ومن دخل بلدانهم وشاهد عساكرهم وتأمل سيرتهم يعرف ذلك من قصدهم، بل من سأل واستبحث يعلم ذلك وإن لم يصر إليهم.

وقد صاروا حرماً للملحدة والزنادقة والفلاسفة والدهرية وجميع أعداء الإسلام، فمن هاجر إليهم أمنه في إلحاده وقال ما شاء كيف شاء، فيا لها مصيبة بذهاب الإسلام وموت أهله وقلة العارفين به وبحقوقه، فإن من بقي ممن يظن أنه من أهله فمنهم من يشبه الله بخلقه، ومنهم من يجوّره في حكمه وإلي غير ذلك.

وباب آخر

[في فرق النصارى]

وهو أن هذه الطوائف الثلاث من النصاري أشد عالم الله تعظيماً للمسيح وتحققاً به وحباً له، يدعون أنهم شيعته وأتباعه، وأنهم أطوع الناس له، وأن ما هم عليه عنه أخذوه، وبه اقتدوا فيه، وعلي وصاياه عملوا، وقال

ﷺ: إن المسيح عبد الله ورسوله أتي الناس بما جاءهم الأنبياء قبله، من آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وموسي وهرون وغيرهم من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، من الدعاء إلي عبادة الله وتوحيده وحده، والإخلاص له وحده بالعبادة والقدم والربوبية وأن النصاري قد كذبوا عليه، وبدّلوا دينه، وعطلوا وصاياه، وأنهم ضاهوا بقولهم قول الذين كفروا من قبل، الذين اتخذوا المخلوقات آلهة وأرباباً ودعوها وتضرعوا لها، كالفلاسفة والصابئين من أهل حرّان، فإنهم اعتقدوا في الشمس والقمر والكواكب والسماء ما قدمنا ذكره، كالقبط الذين قالوا في فرعون ما ذكرنا، وكغيرهم فقد قال بربوبية المخلوقات والمخلوقين خلق كثير، وشرح أحوالهم يطول؛ وأن المسيح عليه السلام عدوٌ لهؤلاء النصاري وبرىء منهم فوجد الناس الأمر كما قال، وعلي ما شرح وفصل، فكم في هذا من عجب، إنه رجل عربي أمي يخبر عن رجل قد سبقه بنحو ألف سنة، ولسانه غير لسانه، وبلده غير بلده، وقومه غير قومه، يخبر عنه بأمور كان عليها.

وقد وجد ﷺ أمماً ممن كانوا قبله يدعون التحقيق بهذا الرجل وهم علي منهاجه وطرائقه، فلو كان منقولاً لتهيب الإقدام علي ذلك، وكان لا يأمن أن يكون القوم الذين سبقوه في الزمان وتحققوا بهذا الرجل قد صدقوا عليه، وأنهم أتباعه كما ادعوا فلا يأمن أن يظهر كذبه، سيما وقد ادعي الصدق والنبوة والرسالة علي أهل الأرض كلهم وعقله الذي لا يدفع. فانظر كيف يتعرض لعظيمات الأمور، وجسيمات الخطوب.

وحكي عن ربه عز وجل أن النصاري ليسوا علي شئ مما[1] جاء به أحد من الأنبياء، فقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[2] فأقدم علي أشياء قد تدبر بها العقلاء وجبابرة الملوك قبله وفي فضائحهم وهتكهم، فيؤخذ الأمر كما قال، فلو لم يكن إلا هذا من أعلامه لكفي وشفي وأغني.

---

(١) في الأصل: ما.

(٢) سورة الزخرف آية ٤٥ .

فإن قيل لكم ومن أعطاكم أن دين المسيح خلاف دين النصاري، وأنهم قد خالفوه؟

قلنا: من تأمل الأمر وجدهم أشد الناس خلافاً عليه وإطراحاً لوصاياه في الأصول والفروع جميعاً. فأما في الأصول فقد آمنوا وعبدوا ثلاثة آلهة وثلاثة أرباب كما قدمنا وتبينا، ولا يختلفون في أن المسيح عيسي بن مريم ليس بنبي ولا عبد صالح، وأنه إله حق من إله حق من جوهر أبيه، وأنه إله تام من إله تام، وأنه خالق السماوات والأرض والأولين والآخرين ورازقهم ومحييهم ومميتهم وباعثهم وحاشرهم ومحاسبهم ومثيبهم ومعاقبهم.

وقد ذكرنا ما يقوله النسطورية من أنه إله مركب من نوعين وطبيعتين، وبينا ما يرومونه من المغالطة. فإن قالوا: فإذ لا نفرد واحداً[1] من هذه الآلهة بالعبادة بل نعبدها كلها بعبادة واحدة، قيل له: أن هذا لا يخرجكم من أن تكونوا قد أشركتم في القدم وأشركتم في العبادة ولا يقدح فيما حكيناه عنكم،، لأنه يصح أن نعبد مائة ألف معبود بعبادة واحدة، وعلي أنا نجدكم تفردونها وكل واحد منها بالإنعام والإيمان كما هو مذكور في تسبيحة الإيمان وتسبيحة القربان، وتفردونها أيضاً بالصنع والأفعال والخلق والتدبير، كما قلتم فيما كان منها من الأفعال حين عمده يحيي مما تقدم ذكره وتقولون أن النازل من السماء حتي صار في بطن المرأة وصار هو وإبنها بالاتحاد الذي فعله إلهاً واحداً ومسيحاً واحداً، وأنه هو الذي أظهر الآيات في الأرض، وهو المقتول المصلوب، وهو الذي أحيا نفسه بعد الموت، وصعد إلي السماء، وجلس عن يمين أبيه. فهذه الأفعال كلها الإبن فعلها لا الأب.

فإن قالوا: كل فعل من هذه الأفعال قد فعله الآلهة الثلاثة.

قيل لهم: هذا خلاف النصرانية وهو بين فيما قدمنا وذكرنا عنهم؛ وأيضاً فإن فعلاً واحداً لا يصح أن يفعله أكثر من حي واحد، ومقدوراً واحداً

---

(١) في الأصل: واحد.

لا يصح أن يقدر عليه أكثر من قادر واحد، وهو مبين في كتب العلماء، والنصاري لا تفهم ذلك ولا تحوجك إليه.

واعلم أن النصاري تعتقد أن الأب قد اختع من ملكه كله وجعله لابنه، فهو يخلق ويرزق ويحيي ويميت، وقد سمعنا هذا ممن يحتج لهم ويخبر عنهم وهو أيضاً بين في تسبيحة إيمانهم. ألا تسمعهم يقولون: ونؤمن بالرب الواحد يسوع المسيح، ابن الله بكر أبيه، وليس بمصنوع، إنه حق من إله حق من جوهر أبيه، الذي بيده أتقنت العوالم وخلق كل شئ، إلي قولهم: وهو مستعد للمجئ تارة أخري للقضاء بين الأموات والأحياء. ويقولون في عباداتهم وصلواتهم ومناجاتهم: أنت أيها المسيح يسوع تحيينا، وترزقنا، وتخلق أولادنا، وتقيم أجسادنا، إلي غير ذلك مما هذا سبيله ويطول ذكره، فبيناهم يفردون كل واحد منها بفعل، وبيناهم يقولون: إن الأمر كله قد رجع إلي الإبن وكله شرك.

فإن قيل: فما الذي عندكم عن المسيح مما يخالف هذا وما حكيتموه عن النصاري؟

قلنا: أما في الأصول فإنه قال لهم: الله ربي وربكم، وإلهي وإلهكم، فيشهد علي نفسه أنه عبد الله مربوب مدبر مصنوع، كما شهد عليهم أنهم كذلك، وأنه مثلهم في العبودية والضعف والحاجة، وذكر أنه رسول الله إلي خلقه، وأن الله أرسله كما أرسل الأنبياء قبله.

فذكر يوحنا في إنجليه أن يسوع المسيح قال في دعائه: أن الحياة الدائمة إنما تجب للناس بأن يشهدوا أنك أنت الله لواحد الحق، وأنك أرسلت يسوع المسيح[1]، فانظر كيف يخلص التوحيد ويدعي النبوة.

وذكر يوحنا أنه قال لبني إسرائيل: تريدون قتلي وأنا رجل قلت لكم الحق الذي سمعت الله يقوله[2]. وذكر أيضاً أنه قال: أني لم أجيء لأعمل بمشيئة نفسي ولكن بمشيئة من أرسلني[3].

---

(١) يوحنا الإصحاح ١٢ فقرة ٤٤ ونصها: فنادى يسوع وقال (الذي يؤمن بي، ليس يؤمن بي بل بالذي ارسلني). وفي ١٧-٨ (وآمنوا أنك أنت ارسلتني).

(٢)، (٣) المرجع السابق والنقل أحياناً بمعناه لاختلاف الترجمات للكتاب المقدس.

وقال عليه السلام: إن الكلام الذي تسمعونه مني ليس هو لي ولكن من الذي أرسلني والويل لي إن قلت شيئاً من تلقاء نفسي[١]. وكان عليه السلام يواصل العبادة في الصلاة والصوم ويتنفل ويقول: ما جئت لأُخدم وإنما جئت لأَخدِّم، وقال: إني أنا لست أدين العباد ولا أحاسبهم بأعمالهم ولكن الذي أرسلني هو الذي يلي ذلك منهم[٢].

هذا في إنجيل يوحنا.

وفيه أيضاً أن المسيح قال: أنهم يارب قد علموا أنك أرسلتني وقد ذكرت لهم إسمك، وقال المسيح: إن الله الواحد رب كل شئ أرسل ابن البشر إلي جميع العالم لينقلوا إلي الحق. وقال أيضاً: أن الأعمال التي أعملهن هن الشهادات لي بأن الله أرسلني إلي هذا العالم[٣].

وقال أيضاً: ما أبعدني أن أحدثت شيئاً من قبل نفسي، ولكنني أتكلم واجيب مما علمني ربي، وقال أيضاً: أن الله مسحني وأرسلني وإنما أعبد الله الواحد ليوم الخلاص. وسألوه عن الساعة متي هي فقال أنا لا أعلم متي ذلك ولا أحد من البشر، ولا يعلم ذلك إلا الله وحده.

وقال: إن الله عز وجل ما أكل ولا يأكل، وما شرب ولا يشرب، ولم ينم ولا ينام، وما ولد ولا يلد ولا يولد، ولا رآه أحد ولا يراه أحد إلا مات. وقال له رجل: يا أيها الخيّر علمني، فقال له المسيح: لا تقل لي هذا، فإنه لا خير إلا الله. وقال له رجل: مر أخي يقاسمني تركة أبي، فقال: ومن جعلني عليكم قاسماً. وقال في دعائه لما سأل ربه أن يحيي الرجل الميت الذي يقال له إيلا عازر، يا إيل: أنا أشكرك وأحمدك، إنك تجيب دعائي في هذا الوقت وفي كل

---

(١) يوحنا الإصحاح ١٤ فقرة ٢٤. والنص يقول: (الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى، والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى) والمعنى واحد.

(٢) انجيل يوحنا الإصحاح ١٢ فقرة ٤٧، ٤٨ . ونصه: (وإن سمع أحد كلامى ولم يؤمن فانا لا أدينه. لأنى لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم. ومن رذلنى ولم يقبل كلامى فله من يدينه).

(٣) انجيل يوحنا الإصحاح ١٧ فقرة ٢٦/٦ .

وقت، فأسألك أن تحيي هذا الميت ليعلم بنو إسرائيل أنك أرسلتني وإنك تجيب دعائي[(١)].

وقال في دعائه وقد خاف الموت ولم يزل يواصل الصلاة والتضرع والدعاء والبكاء، يا إيل[(٢)]: إن كان من مسرتك أن تصرف هذه الكأس المراة عن أحد فاصرفها عني، وليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت. وكان يرمي من فمه كعلق الدم جزعاً من الموت، ويعرق ويقلق[(٣)]. وكان إذا ذكر البعث والقيامة والحساب يكون منه البكاء والقلق والجزع ما لا يكون من أحد، ويكون من صلاته وصيامه وعبادته وخشوعه ما لا يكون من أحد من زمانه، ومثل هذا من أقواله وأفعاله أكثر من أن يحصي، وهو معهم وفي أناجيلهم، حتي لقد أحصي أهل المعرفة والعلم، فوجدوا المسيح عليه السلام له من الإقرار علي نفسه بالعبودية والضعف والحاجة والفقر والفاقة، ولله عز وجل بالغني والربوبية، ما لم يكادوا يجدونه لأحد من الأنبياء والصالحين، ثم تقول فيه النصاري ما قد سمعت.

فإن قالوا: فقد حكي متي عنه في إنجليه أنه قال لتلامذته: سيروا في الأرض وعمدوا العباد باسم الآب والإبن وروح القدس[(٤)]. وحكوا عنه أنه قال: أنا كنت قبل إبراهيم، وما أشبه ذلك.

قيل له: ليس المسيح أول من كُذب عليه وأنتم تعلمون أن ماني القس يدعي التحقيق بالمسيح، وأنه من أتباعه، وأنه ليس أحد علي شريعته ووصاياه إلا هو وأتباعه، وأن الإنجيل الذي معه هو إنجليه. وهو يذكر عنه أنه كان يحرم علي الناس كلهم وعلي نفسه النساء وذبائح الحيوان وأكل اللحمان، وأن هذا ما حل قط ولا يحل، ويلعن كل من أحله وأنه كان تبرأ من إبراهيم وموسي

---

(١) انظر معجزات المسيح في انجيل متي، الاصحاحات ٨ / ٢٠، ١٧، وإنجيل يوحنا، الاصحاحات ٤، ٥، ٦ .

(٢) يعنى يا الله.

(٣) انظر واقعة الصلب بزعمهم في انجيل متي، الإصحاح ٢٦، ٢٧، وانجيل لوقا، الإصحاح ٢٢، ٢٣، وانجيل يوحنا، الإصحاح ١٩، وانجيل مرقس، الاصحاح ١٥، ١٦.

(٤) متى - الإصحاح ٢٨ - الفقرتان ١٩ ، ٢٠.

وهارون ويوشع وداود، ومن كان يري ذبح الحيوان وأذيته وأكل اللحمان وغير ذلك. ويستشهد علي ذلك بمواضع من الأناجيل التي معكم أنه قد كذب علي المسيح وافتري وأخطأ فيما تأول، وأن تزكية المسيح لهؤلاء الأنبياء أمر ظاهر لا ينصرف عنه التأويل.

قلنا: فهذه سبيلكم في دعاويكم علي المسيح وأنتم في هذا أشد فضيحة من المنانية، لأن تصديق المسيح للأنبياء وشهادته لما شهدوا به من توحيد الله وإفراده بالقدم والربوبية والحكمة أبين من كل بيّن وأوضح من كل واضح.

والعقلاء يردون المجهول بالمعلوم، وما التبس بما اتضح، وما يحتمل بما لا يحتمل. وقد بلغ الجهل بالنصاري في بدعهم هذه أنهم يقصدون إلي ألفاظ في التوراة وفي كتب الأنبياء متحملة، يحملونها علي ظنونهم السيئة وبدعهم هذه الفاحشة، فيقولون: إنما أراد إبراهيم وموسى وهارون وسائر الأنبياء وهو ما أردناه من أن الله ثالث ثلاثة، وأن الأرباب جماعة، وأن الله يصعد وينزل ويولد ويقتل. فيقصدون إلي ما في التوراة من أن الله قال نريد أن نخلق بشرا علي صورتنا ومثلنا[١]. فيقولون: هذا خطاب من جماعة، أما تسمعونه يقول: نريد، ولم يقل: أريد أن أخلق بشراً مثلي، لتعلموا أن الآلهة جماعة، وأنهم علي صور وهيئات كهيئات الناس، وما أشبه هذا من الألفاظ المحتملة.

حتي تعدوا إلي القرآن فقالوا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢]، قالوا: فهذا خطاب من جماعة لا من واحد. وقالوا في قوله عز وجل: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[٣] قالوا فهذا أحد الآله والأرباب يقسم بالأرباب. وقالوا في قوله عز وجل: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[٤] قالوا: فإنما الإله يقسم بنفسه

---

(١) جاء في التوراة في سفر التكوين، الإصحاح الأول فقرة (٢٦): «وقال الله نعمل الإنسان علي صورتنا كشبهنا». وفى فقرة (٢٧): (فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرا وأنثى خلقهم). وفى فقرة (٢٨): وباركهم الله)

وهذا كله بخطاب المفرد وليس الجماعة مما ينقض دعواهم. ومن كتابهم المقدس ومن النصوص التى تلت النص الذى يستدلون به على أن الآلهة جماعة . مما يبطل إفكهم. وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرًا.

(٢) سورة القدر آية ١ . (٣) سورة المعارج آية ٤٠ . (٤) سورة البلد آية ٣ .

وولده. فيقولون: محمد قد جاء بالنصرانية وبمذهبنا، ولكن أصحابه لم يفهموا عنه. ويقولون في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾(١).

قالوا فهذا الذي نقوله نحن: أنه من جوهر أبيه، ولا نريد بقولنا منه أنه بعضه ولكنه من جنسه ومثله. فيقصدون إلي أقوام كإبراهيم والأنبياء صلوات الله عليهم وأمثالهم قد عرفت مذاهبهم ومقاصدهم فينصرفون عنها بالتأويلات ومحتمل الألفاظ. ومذاهبهم قد تحصلت حصلاً لا يحتمل التأويل، لأن العلم بأن المسيح كان في توحيده علي منهاج إبراهيم وموسي وهارون وداود ومحمد ﷺ لا يرتاب به من عرف أخبارهم وسيرهم ودعوتهم قبل العلم بنبوتهم.

فاعرف هذا فإنه أصل كبير يعرفه من تأمل وأراد التبيين وقد اعتقد في مثله خلق كثير من العقلاء.

ثم هناك من الكذب علي الأنبياء فضلاً من التأول لما في كتبهم، كقلوهم أن الأنبياء قالوا قبل مجئ المسيح: أن الله سيجيء وتحبل به إمرأة عذراء، ويؤخذ ويصلب ويقتل ويموت ويدفن. هذا مما هو أكثر من أن يحصي.

ويقال للنصاري لا فرق بين من ادعي علي المسيح أنه ادعي الربوبية وأن الله ولده وأنه ابنه علي ما تعتقدون وتدعون، وبين من ادعي أنه هو وضع تسبيحة الإيمان وتسبيحة القربان، وأنه اتخذ البيعة، وجعل عيده يوم الأحد، وأخذ الناس في زمانه بأن يقولوا: يسوع المسيح إله حق من إله حق من جوهر أبيه، وأنه كان يأخذهم بأن يقسموا بعبد يسرع وعبد المسيح، وأنه أحل الخنزير وأكله، وصلي إلي المشرق، وعطّل الختان والوضوء والطهارة وغسل الجنابة، وأخذ أصحابه بصيام الخمسين، وشرع ذلك ودعا إليه، ومن بلغ هذا فقد تناهي في المكابرة والمجاحدة، اللهم إلا أن لا يكون يعرف أخبار المسيح والنصاري في زمانه، والنصاري بعد موته ومضيه ولا عني بذلك. فسبيل من

---

(٥) سورة النساء آية ١٧١ .

ادعى عليه ما يدعي عليه هذه النصاري وما تحكيه عنه وتتأوله عليه، كسبيل من ادعى عليه الأمور التي قدمنا ذكرها.

وفي النصاري قوم استبصروا وأسلموا وتتبعوا المواضع والألفاظ الي تدعيها النصاري علي المسيح، وقالوا لهم: ما نعلم المسيح قال ذلك، ولو قاله لما ضاق مجازه وتأويله، كقولهم أنه قال: ابن البشر رب السبت، وأني قبل إبراهيم وأني بأبي وأبي بي، وما أشبه ذلك.

فقالوا لهم: في التوراة أن موسي إله فرعون وإله هرون، وأن هرون رسول موسي إلي فرعون، وأن يوسف قال للمصريين: أن العزيز ربهم. وذكروا لهم عن إبراهيم ولوط وداود وسليمان وعن غيرهم من الأنبياء شيئاً كثيراً، ولا حاجة بك إلي ذكره ومعرفته، ولو عرفته لم يكن به بأس، ولكن ارجع أبداً إلي أصل الدعوة والنحلة، والمعروف من قول النبي، ورد المجهول بالمعلوم، وقد استغنيت عن التأويل كما تقدم لك.

ومثل هذا ما يدعيه المنجمون علي رسول الله ﷺ أنه كان يذهب إلي ما يذهبون، لأنه قال في كتابه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[١] وأنه قال: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾[٢] و﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾[٣] وغير ذلك.

فقال لهم أهل العلم: قبل كل شئ قد عرفنا من دعوة هذا الرجل وقصده قبل المعرفة بنبوته أن ما يكون في غد لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا يعلمه إلا الواحد المنفرد بالقدم، فلا وجه للتعليق عليه بظواهر الألفاظ وبالتأويل، هذا لا يفعله عاقل ولا يذهب الغلط فيه علي محصل، وإنما يخادع بهذا أهل الغفلة.

وكذا قالوا الباطنية ومن سلك سبيلهم: في أن باطن الصلوات أشخاص وكذا العبادات، وأن لكل ظاهر باطناً، غير ما عليه الفقهاء والعامة. فقالوا لهم: ادعيتم أنكم من المسلمين وقد علمنا من دعوة هذا النبي ﷺ قبل العلم بنبوته

---

(١) سورة الصافات آية ٨٨.

(٢) سورة القمر آية ١٩ .

(٣) سورة فصلت آية ١٦ .

أن ما حرمه من الزني واللواط والربا والخمر والخنزير والأمهات والبنات والأخوات وغير ذلك محرم علي كل عاقل بلغته دعوته كائناً من كان، وأنه علي ما عليه الفقهاء والعامة، وأنه لا تأويل لذلك ولا باطن، وأن جميع ما أوجبه من الطهارات والصلوات والصيام والعبادات لا تسقط عن عاقل كائناً من كان علي ما عليه الفقهاء والعامة لا تأويل لذلك ولا باطن. وأن من قال: لهذه الأشياء باطن أو تأويل، فقد كفر وأشرك وخرج من الإسلام خروجاً ظاهراً.

ولا حاجة بنا إلي أن نبين لكم تأويل الآيات التي سألتم عنها، فقد علمنا من قصده ﷺ أن مراده في ذلك غير مرادكم، وقصده غير مقصدكم. مثل هذا قالوا لمن قال من هشام بن الحكم واتباعه حين قالوا: إن الله لا يعلم ما يكون قبل أن يكون، لأنه قال: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾[1]، وأنه يفعل الجور والظلم. ولمن قالوا: يأمر بالفسق لقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾[2] فاعرف هذا فإنه أصل كبير.

ثم رجعنا إلي قولنا في النصاري.

فإن قيل: كل هذا الذي[3] حكيتموه عن المسيح موجود في الكتب التي مع النصاري، فكيف جعلتم ما حكاه نبيكم عن المسيح وعنهم من معجزاته وآياته؟ قلنا: قد فرغنا من هذا غير مرة وبيَّنا أن هذا النبي ﷺ ما قرأ الكتب ولا قرئت عليه، ولا اختلف إلي أهلها ولا اختلفوا إليه، ولا عرف ذلك إلا بوحي، وإن كان موجود في كتبهم. كما أنه لم يعرف قصة نوح وإبراهيم ويوسف وموسي وهرون إلا بالوحي، وإن كانت مذكورة في كتبهم.

فإن قيل: لعمري إن من عرف دعوة المسيح يعلم أن دعوته إلي توحيد الله كدعوة موسي وهرون ومحمد وأمثالهم من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، وأنه برىء من دعوة هذه الطوائف من النصاري كبراءته من دعوة

---

(١)سورة محمد آية ٣١.

(٢) سورة الإسراء آية ١٦.

(٣) كلمتا (الذى وأنه) ليستا في الأصل.

المنانية، وكبراءة محمد وموسي وهرون من ذلك أجمع، ولكن قد جاء عنه أنه كان يقول في الله أنه[١] أبوه، فيقول: أرسلني أبي، وقال لي أبي، ومثل هذا كثير، فما عندكم فيه؟.

قيل له: إن كان قد قال هذا فلا حجة للنصاري فيه، لأنهم قد قالوا إنه قال لنا: أنا أذهب إلي أبي وأبيكم، وربي وربكم فلم يجعل لنفسه مزية عليهم، فإن وجب أن يكون هذا القول إلهاً ورباً ومعبوداً، وجب أن يكونوا هم كذلك، وقد قال بعض الناس: إن الابن في اللغة العبرانية التي هي لغة المسيح تقع علي العبد الصالح المطيع الولي المخلص، وأن الأب قد تقع علي السيد المالك المدبر؟.

قالوا: وقد قال في التوراة: إن إسرائيل ابني وبكري وأولاده أبنائي؛ وعلي دعوي النصاري تجب لهم الإلهية وقد قال ايشيعيا النبي عليه السلام في كتابه: إن الله أبو جميع العالم، وأنتم معشر النصاري تذكرون أن متي حكي في إنجيله عن المسيح أنه قال: طوبي لكم معشر المصلحين بين الناس فإنكم تسمون أبناء الله، وقال متي في إنجيله: إن المسيح قال للناس: إن أباكم السماوي واحد فرد. وقالوا: إن المسيح كان يقول في صلاته التي كان يصليها ويعلمها الناس: قولوا يا أبانا الذي في السماء أنت قدوس اسمك، عزيز سلطانك، نافذ أمرك في السماوات والأرض، لا يعجزك ما طلبت، ولايمتنع منك ما أردت، فاغفر لنا ذنوبنا وخطايانا ولا تعذبنا بالنار[٢]. فينبغي علي قول النصاري أن تكون هؤلاء كلها آلهة وأرباباً، لتعلم أن اسم الأب يقع في تلك اللغة علي السيد والمالك.

وقال المسيح لبني إسرائيل: لو كنتم أبناء إبراهيم لأجبتموني فإني إبن إبراهيم. وقد علمنا أن بني إسرائيل كلهم أولاد إبراهيم، وإنما أراد أنكم لو كنتم أولياء إبراهيم. وأيضاً فإن النصاري تذكر عن بولص أنه ذكر في الرسالة

---

(١) كلمتا (الذى وأنه) ليستا في الأصل.

(٢) انظر نص الصلاة في انجيل متي، الإصحاح ٦، الفقرات من ٩-١٤ .

فقال بأن الروح نفسها تشهد لأرواحنا أنا أبناء الله وهم يقولون في الأشرار: أنهم أبناء الشياطين ومثل هذا كثير في لغتهم. واستعمالهم في الإبن بمعني الولي المخلص، وفي الأب بمعني السيد المالك الرفيع.

ولهذا تقول النصاري في الجاثليق أبونا، فيذا كله في استعمالهم. ولكنهم لما اعتقدوا في الله عز وجل أنه رجل وإنسان وشخص وما هذه سبيله لم يرضوا أن يجعلوا له أبناء إلا بالحقيقة من طريق الولادة والتناسل كما تقدم بيان ذلك لك. وهم يقولون: أن الله الأب قال لابنه لمسيح إنى ولدتك قبل أن أخلق كوكب الصبح. وليس في هذه الطوائف الثلاث من النصاري من يقول: إن المسيح ابن الله عن طريق التشريف والمجاز، بل هو إله تام من إله تام، واله حق من إله حق، من جوهر أبيه. فاعرف هذا.

باب آخر
[واقعة صلب المسيح بزعمهم]

من هذا الجنس، وهو أن هذه النصاري واليهود جميعاً يدعون فيلاطس الرومي ملك الروم أخذ المسيح يتظلم اليهود منه وسلمه اليهم، فحملوه علي حمار وجعلوا وجهه إلي عجز الحمار وجعلوا علي رأسه إكليل شوك، وطوفوا به تنكيلاً. وأنهم كانوا يقفدونه من ورائه ويأتون من تلقاء وجهه فيقولون له: يا ملك بني إسرائيل من صنع هذا بك؟ سخرية منه. وأنه لما ناله من الكدّ والشقاء عطش واستجدي وقال لهم: اسقوني ماء، فأخذوا الشجر المر واعتصروه وجعلوا الخل في ذلك العصير وأعطوه، فأخذه وهو يظنه ماء فغب فيه فلما وجد مرارته مجه فسعطوه به وعذبوه يومه وليلته[1]. فلما كان من الغد وهو يوم الجمعة الذي يسمونه جمعة حشا سألوا فيلاطس ضربه بالسوط فضربه، ثم أخذوه وصلبوه وطعنوه بالرماح وما زال يصيح وهو

---

(١) أى يضربونه على قفاه.

مصلوب علي خشبة يا إلهي لم خذلتني ياإلهي لم تركتني، إلي أن مات ونزلوا به ودفنوه.[١] وادعي اليهود والنصاري العلم بذلك والمعاينة والمشاهدة، وأنهم قد تلقوا ذلك الجمهور عن الجمهور، والأمم عن الأمم، وصار النصاري خاصة يسخرون من المسلمين إذا قالوا ما كان هذا من شئ، ويقولون: أي فائدة لصاحبكم في مكابرة الأمم المجمعة علي ذلك، وقد سبقوه وكانوا قبله، وهم أهل هذا الرجل وأصحابه، وبينهم ولد، ومعهم نشأ، وقد أجمع علي ذلك عدوه من اليهود ووليه من النصاري، فأنكر نبيكم. وهل هذا إلا كما قيل: رضي الخصمان وأبي القاضي.

فنظر أهل العلم في قوله ﷺ، فإذا هو قد أخبر أنهم قد قالوا ذلك وهم لا يعلمونه، وما معهم علم به ولكنه ظن يظنونه، فإذا الأمر كما قال وكما أخبر، والعلم بأن الاعتقاد هو علم أوجهل أو ظن لا يعلمه إلا من قد صحب المتكلمين والنظارين وانقطع إلي صنعة الكلام ومهر فيها وركد، وهذا رجل متكلف، فيعلم أنه ما علم هذا إلا بالوحي من قبل الله وهذا من آياته العجيبة.

وتأمل إلي إقدامه علي أمتين عظيمتين من أهل التحصيل والعقل، قد أجمعوا علي أمر وسبقوه في الزمان، وهو أشد الناس حرصاً علي تآلفهم وإجابتهم واستمالتهم، فأكذبهم وردهم، ولو كان متقولاً لتهيب ولم يقدم علي ذلك خوفاً من أن يكون الأمر كما قالوا وكما ادعوا فيبين كذبه ويرجع عنه من قد تبعه، لأن الأنبياء يجوز أن يقتلوا ويصلبوا، بل قد قتل قوم منهم. وأيضاً، فليس في قتل المسيح طعن عليه ولا قدح في أمره، وما به حاجة إلي مخالفتهم في ذلك، لا قد كان ينبغي أن يكون إلي تصديقهم في ذلك أحوج، ليكون تشنيعه علي النصاري أقوي، لأنهم قد اعتقدوا فيه أنه إله ورب وقد رأوه أسيراً مقهوراً في يد عدوه ومصلوباً ومقتولاً، ويزيد شناعته علي اليهود لأنهم قد قتلوا نبياً آخر مضافاً إلي غيره من الأنبياء الذين قد قتلوهم قبل المسيح.

---

(١) راجع واقعة الصلب بزعمهم في إنجيل متي الاصحاح ٢٧، وانجيل مرقس، الاصحاح ١٥، وانجيل يوحنا، الاصحاح ١٩

فتجنب ﷺ هذا كله مع الحاجة إليه، وقال: قد ادعوا أنهم قد علموا ذلك وليسوا به عالمين ولا متفقين، وما معهم فيه إلا الظن فقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾[1] أي ليس ثم يقين ولا سكون نفس، تقول العرب في الخبر المتيقن قتلته علماً وقتلته يقيناً. ثم قال: ﴿بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾[2] أي صانه وعظمه أن تناله يد عدوه بالقتل والصلب، لأن الظن قد يصدق تارة، وقد تجتمع الجماعة الكبيرة فتصدق المخبر الواحد من طريق حسن الظن بخبره، ويكون قد صدق فيما أخبر، فيكونوا صادقين وإن لم يعلموا صدقه، وإن ظنوا أن اعتقادهم لذلك علم. فانظر إلي ذلك كيف بيَّنه من كل وجه.

فإن قيل: ومن أين لكم أن الجماعات من أسلافهم ما شاهدوا ذلك ولا عاينوه كما ادعوا؟ قيل له: من تأمل علم بعقله أن الأمر كما قال ﷺ لا كما قالوا، لأن تلك الجماعات لو قد كانت شاهدت ذلك وعلمته لكان من لقيهم وسمع منهم في مثل حالهم في العلم بذلك، فكان يكون كل من لقي النصاري واليهود وسمع ذلك منهم عالماً بذلك، فكنا نكون في مثل حالهم في العلم بذلك.

ألا تري أنا لما أخبرناهم بقتل حمزة وجعفر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم شاركونا في العلم لذلك وصارت حالهم في ذلك مثل حالنا، فلما رجعنا إلي أنفسنا فلم نجدنا عالمين مع مخالطتنا لهم وكثرة سماعنا منهم، علمنا أنهم ليسوا بذلك عالمين، وأن اعتقادهم لذلك ليس بعلم. فبهذا الدليل علمنا صحة دعواه ﷺ وكذب دعواهم في أنهم بذلك عالمين.

---

(١) سورة النساء آية ١٥٧.

(٢) سورة النساء آية ١٥٨.

وبهذا الاعتبار تعلم رحمك الله بطلان دعوي من ادعي من اليهود أن موسي عليه السلام شافه أسلافه الذين كانوا معه وهم ستمائه ألف رجل شاب سوي المشيخة والنساء بأن شريعته مؤيدة إلي أن تقوم الساعة، وأنه لا يحل تغير شئ منها البتة وأن من ادعي خلاف ذلك فقد كذب وكفر. وادعت اليهود أنهم بذلك عالمون.

فقلنا: لو كنتم بذلك عالمين، وكان اعتقادكم لذلك علماً، وقد حجكم من لقيتم من أسلافكم لكنتم حجة علي أهل زمانكم، وكان يعلم ذلك بقولكم وأخباركم كل من شرح ذلك منكم، فلما كنا بذلك غير عالمين فإن اعتقادكم لذلك ليس بعلم. ألا تري أنّا وكل من يسمع منكم يعلم أن موسي عليه السلام كان يدعي أنه رسول الله، وأن الله اصطفاه وأرسله، وأنه عليه السلام كان يحرم الأمهات والبنات والأخوات والميتة والخنزير وذبائح الوثنيين، إلي غير ذلك مما حرمه، وأنه كان يقيم السبت.

فلو كان ما ادعيتم من تأبيد شريعته لكان علمنا به كعلمنا بما قدمنا، بل كان يكون أقوي من العلم بذلك، فلما لم يكن كذلك علمنا وتيقنا أن موسي عليه السلام ما قال ذلك ولا دعا إليه وأن الأمر لم يجر المجري الذي ادعيتموه.

يزيدك وضوحاً لذلك أن رسول الله ﷺ لما عهد أن شريعته مزيدة، علم ذلك كل من سمع الأخبار ممن صدقه أو كذبه، فلو كان الأمر كما ادعوا لعلمنا ذلك بأخبارهم كما علموا ذلك من شأن نبينا بإخبارنا إياهم وبسماعهم ذلك منا.

وهذا أصل كبير سبيلك أن تعني به وتكبر مراعاتك له، فيه تعلم أيضاً بطلان دعاوي النصاري في إدعائهم قيام المسيح من قبره، وأنه عليه السلام أقام معهم بعد قيامه من قبرة أربعين يوماً ثم صعد إلي السماء وهم يرونه وهم يؤكدون هذا الكذب بأن يجعلوا له عيداً في يوم بعينه.

وبمثل ذلك تعلم بطلان دعواهم أن الخشبة التي صلب عليها المسيح

وضعت علي ميت فإذا هو حي يسعي، وأن هذا كان ببيت المقدس جهاراً في يوم شهدته النصاري واليهود والروم وأمم لم يحصها إلا الله لكثرتها. ولهذا نظائر من دعواهم.

وبه تعرف بطلان دعاوي المجوس لزرادشت المعجزات.

وبمثل هذا تعلم بطلان دعاوي الرافضة أن النبي ﷺ استخلف أمير المؤمنين علياً علي أمته، وفرض طاعته عليهم أجمعين من الأحرار والعبيد والرجال والنساء وجعله حجة عليهم. وادّعوا أنهم قد علموا ذلك بإخبار جماعات أخبروهم بذلك، وأن اعتقادهم بذلك علم. فقلنا: لو كنتم بذلك عالمين وكان اعتقادكم لذلك علماً، لساويناكم في العلم بذلك لكثرة سماعنا منكم والخوض معكم فيه، فلما لم يكن كذلك، علمنا وتيقنا أن ذلك أمر لا أصل له.

والعلم ببطلان دعاوي الرافضة في ذلك أقوي وأظهر والأدلة عليه أكثر، لقرب عهده وكثرة الخوض فيه، ولأن الذي ادعي ذلك لم يكن يدعيه ولا يذهب إليه، ولأمور كثيرة. والأدلة علي ذلك أكثر من الأدلة علي غيره.

والرافضة تسأل في ذلك عما تسأل عنه اليهود والنصاري والمجوس في الطعن علي رسول الله ﷺ وفي نبوته. فيقولون لما اعتقدتم صدق محمد ونبوته فقال لكم: أن المسيح لم يصلب وأن موسي لم يقل أن شريعته مؤيدة وصار إقراركم بذلك ناقضاً لقولكم ومفسداً لدينكم، ومبطلاً لأصولكم ذهبتم عنه ولم تعترفوا به.

قيل لهم: قد عرفناكم أنا إنما عرفنا بطلان هذه الدعاوي بذلك الاستدلال والاعتبار الذي قدمنا وشرحنا قبل العلم بنبوته ﷺ وقبل المصير إلي قوله وقول أصحابه، حتي لو استدلت الملحدة كما استدللنا لعلمت من ذلك ما علمنا، وحتي لو لم يبعثه الله تبارك وتعالي حتي يعتبر معتبر ويستدل مستدل لعلم بطلان هذه الدعاوي كلها لأنا وجدنا أمماً أمثالنا وفي زماننا

يدعون أموراً وعهوداً قد كانت في العصور الخالية التي قد سبقتنا ادعوا العلم بها، فرجعنا إلي عقولنا واختبرنا فدلت العقول علي أن اعتقادهم لذلك ليس بعلم، وأن خبرهم بذلك ليس بصدق، وأنه لم يكن هناك شئ مما ادعوه ينقل إليهم، وإنما هم قوم شبه لهم فاعتقدوا أموراً تموهت عليهم فسموا اعتقادهم علماً وخبرهم نقلاً.

وأيضاً فلو كنا إنما نعترف بذلك خوف الفضيحة في بطلان ديننا فقد كان ينبغي أن نكون بذلك عالمين وأن لم نعترف، كما يعلم اللص أنه سرق وأن لم يعترف خوف الفضيحة.

وأيضاً فإن كان الناس قد علموا أنا قد علمنا فجحدنا وكابرنا فقد تعجلنا الفضيحة وعلم الناس جميعاً ببهتنا ومكابرتنا فما سلمنا من الفضيحة المعجلة، وهذا لا يذهب فساده علي عاقل نظر وتدبر.

فإن قالوا: فأنتم بذلك عالمون وأن لم تعترفوا، قيل لهم: إنا إذا رجعنا إلي أنفسنا علمنا كذبكم علي ضمائرنا، وكفي بذلك علماً لنا بكذبكم علينا وبهتكم لنا، فإنا لا نعلم ذلك بل لا نعتقده، فضلاً أن نعلمه. بل نعتقد ونعلم بطلان ذلك، كما نعلم أن للعالم صانعاً وأنه واحد وأن محمداً ﷺ رسوله إلي خلقه.

وأيضاً، فإن الجماعات الكبيرة لا تجوز أن تكتم ما قد رأته وسمعته وإن ضرها ذلك وإن ساءها، كما لم تجوز أن تفتعل ما لم يكن فتقول: قد كان ورأينا وسمعنا وإن كان ما رأت ولا سمعت وإن سرها ذلك ونفعها، وهذا في الكتمان أقوي وأظهر وأبين، لأن الكتمان أثقل، والصبر عليه أشد، والحفظ له أصعب، والناس إلي القول أسرع، وهم عليه أخف، ولهم فيه فرح واسترواح، وعلتهم في الكتمان كالكرب والألم، فيستروحون بإذاعته وينفرجون بإلقائه، حتي إنهم ليتحدثون بما فيه زوال نعمهم وسفك دمائهم، وحتي لقد ادعينا أن يكتم ما بين السلطان ووزيره وأمثال ذلك ممن يجوز عليهم الكتمان، فإن الكتمان قد يجوز علي الواحد والإثنين والنفر اليسير.

وكذا الافتعال وإن كان الافتعال أمكن من الكتمان. ولهذا يتواصي العقلاء بالصمت والكتمان ما لا يتواصون بالقول، ويحذرون منه ما لا يحذرون من القول، حتي أن الصمت والكتمان لا يجوز إلا في عقلاء الرجال وفي أفراد الناس، وهو فيهم أقل من القليل.

فاعرف هذا فإن هؤلاء الملحدة كأبي عيسي الوراق، والحداد، وابن الراوندي، لما لم يجدوا في رسول الله ﷺ مطعناً ادعوا أنه قد كانت له فضائح وأكاذيب وحيل وقف عليها أصحابه وأهله وكتموا ذلك لحبهم له ولئلا يفتضحوا باتباع كذاب. وإنما يجوز أن ينكتم ما يكون بين أثنين من النفر اليسير مدة ما ثم يظهر، فأما ما يكون بين الجماعة فإنه لا ينكتم، ولا يطمع العاقل في كتمانه ولا يحدث نفسه به وإن ضره وإن ساءه. ألا تري أن النبي ﷺ، جاء بإكفار اليهود والنصاري والمجوس، وبالبراءة منهم، وسفك دمائهم، وسبي ذريتهم، واستباحة أموالهم، وبأخذ الجزية من أهل عهدهم، إلي غير ذلك مما شرعه من مكارههم، وكل ذلك قد ضرهم وساءهم وذهب برئاستهم واسقط من أقدارهم، وقد ودوا أن ذلك لم يكن قط، وأن الله قد رفعه من قلوبهم ومن قلوب الخلق أجمعين، وهذا علموه حين نطق به النبي ﷺ وقاله وشرعه وهو وحيد ضعيف فقير، وهم قد ثقلوا ذلك وأذاعوه ونشروه وتحدثوا به مع ما عليهم فيه، والدولة والعزّ والغلبة إذ ذ ك لهم لا له.

وهذا حال أمير المؤمنين مع معاوية وبني أمية فإنهم قد كرهوا عقد أهل المدينة له بعد عثمان، وكرهوا ما دعا إليه من تضليلهم، وما فرضه من مجاهدتهم وقتالهم وما بيّنه من نقضهم وتسفيههم، وودّوا أن ذلك لم يكن، وما طمعوا في كتمان شئ من ذلك ولا فيما كان له من الفضائل، وأنه رضي الله عنه من البدريين والسابقين، ومن الفقهاء والزهاد والأولياء، ومن العشرة ومن أهل الشجرة ومن أهل الشوري، وقد ساءهم كل هذا فما أمكنهم مع الملك والدولة أن يدفعوه عن شئ منه مع محبتهم لدفعه عنهم ومع كراهتهم لكونه، ولا أن يدخلوا معاوية وهو سيدهم ورئيسهم في المهاجرين ولا في الأنصار، وقد ودوا

أن ذلك قد كان، ولا أمكنهم أن يخرجوه من أن يكون من الطلقاء وأبناء الطلقاء.

وانظر إلي الشعراء الذين هجوا رسول الله ﷺ من قريش ومن غيرهم، ومن الكتب التي وضعها الملحدة وطبقات الزنادقة، كالحداد، وأبي عيسي الوراق، وابن الراوندي، والحصري، وآمالهم في الطعن في الربوبية وشتم الأنبياء صلوات الله عليهم وتكذيبهم، فإنهم وضعوها في أيام بني العباس وفي وسط الإسلام وسلطانه والمسلمون أكثر مما كانوا إذ ذاك وأشد ما كانوا ولهم القهر والغلبة والعز.

والذين وضعوا هذه الكتب أذل ما كانوا، وإنما كان الواحد بعد الواحد من هؤلاء يضع كتابه خفياً وهو خائف يترقب، ويخفي ذلك عن أهله وولده، ولا يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد ممن هو في مثل حاله في الخوف والذل والقهر، ثم ينتشر ذلك في أدنى مده ويظهر حتي يباع في أسواق المسلمين، ويعرفه خاصتهم وعامتهم، ويتحدثون به ويتقولونه ويذكرونه وقد غمّهم ذلك وساءهم، وودوا أن ذلك لم يكن.

وكذلك ما كان بالبحرين من أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي وولده، وما كان من أبي القاسم الحسن بن الفرح بن حوشب بن زادان النجار الكوفي بجبال لاعة وعدن لاعة من أرض اليمن، وما كان من أبي الحسين محمد بن الفضل بجيشان والجند والمذيخرة من أرض اليمن، وما كان لعبيد المتسمي بعبيد الله المهدي بأرض المغرب، وما كان بمن بعده من هذه الطوائف فإنهم كلهم لما تمكنوا وقد كانوا في أول أمرهم يتسترون بالتشيع، فلما ظهروا وصاروا في جماعات وعساكر أغاروا على من جاورهم وقرب منهم، فشتموا الأنبياء واستنجوا بالمصاحف، وسبوا المسلمات والعلويات، وغزوا مكة. وكان غزو مكة لقرامطة البحرين خاصة من ولد أبي سعيد، وغدروا بالحجاج بعد أن أمنوهم، ولهم في قصد الإسلام ومكاره المسلمين ما هو معلوم ومكتوب.

وكل ذلك مما قد ضر المسلمين وكرهوه، وودوا أن ذلك لم يكن، ثم هم

يذكرون ذلك ويتقولونه ويدونونه، فتعلم أن الدول والممالك والقهر والغلبة لا تغطي علي الأمور، التى قد كانت ووقعت،

وإن العقلاء لا يحدثون أنفسهم بكتمان معاييهم التي قد كانت وتحصلت وعلم بها الناس مرة واحدة، ولا يحدثون أنفسهم بكتمان مناقب أعدائهم وإن ساءهم وغمهم.

يزيدك علماً بذلك أن للفرس والروم والهند محاسن ومناقب لا يسترها أعداؤهم من المسلمين ولا يكتمونها وإن ساءتهم. وكذا ما للمسلمين والعرب من المحاسن والمناقب لا يدفعها أعداؤهم من هذه الأمم.

وللوك بني أمية مساوئ وهفوات كانت مذكورة متداولة في أيامهم وفي سلطانهم، وكذا لملوك بني العباس، ولملوك بني أمية محاسن لا يدفعها أعداؤهم من ملوك بني العباس.

فاعرف هذا الباب وأطل فكرك فيه تعرف غلط الملحدة، وتعرف بطلان دعاوي الشيع أن الصدر الأول من المسلمين غيروا النصوص والقرآن، فبدّلوا ووضعوا ما لم يكن، ونسبوه إلي النبي ﷺ، وأخذه عنهم التابعون، وصار فيمن بعدهم من العلماء وطبقات المتكلمين والفقهاء فظنوه ديناً وليس كذلك. وأن هذه الحيلة قد تمت علي المعتزلة والفقهاء وعلي أصحاب الحديث والمرجئة والخوارج، وخفي عليهم موضع الحيلة في ذلك، وأن سلطان أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم غطي ذلك ومنع من ذكره، وأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما ملك سلك سبيل الخلفاء قبله وما أمكنه إظهار تضليلهم إلي أن خرج من الدنيا، لأن أعوانه وجنده كانوا شيعة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فلو أومي إلي تضليلهم لقتلوه وأبادوه، فالحجة في بطلان دعاويهم هذه كالحجة علي الملحدة وجميع أعداء رسول الله ﷺ. علي أن هذا الطعن علي السلف إنما وضعه لهم الملحدة الذين قدمنا ذكرهم فلكلهم كتب في نصرة دعاوي الرافضة علي المهاجرين والأنصار، وهم خدعوهم ولقنوهم هذه المطاعن لفرط عداوتهم لرسول الله ﷺ، فتمت حيلتهم عليهم وهم لا يشعرون.

علي أنهم لا ينفصلون عن مطاعن الملحدة علي رسول الله ﷺ ما أقاموا علي بدعهم هذه، والحجة عليهم أكثر منها علي كل مبتدع، كما أن الحجة علي الشيع أكثر من هذا.

ثم عدت إلي اليهود والنصاري فيما ادعوه من الصلب وغيره ما قدمنا، فقيل لهم: إذا كان العلم بذلك قد شاع في الأمم وعلمه العقلاء الذين سمعوا به لكان محمد ﷺ ومن كان في زمانه من الأمم الذين صدقوه واعتقدوا نبوته قد علموا ذلك لا محالة فكيف ادعي أن ذلك لم يكن، وهل يفعل هذا عاقل كائناً من كان، فكيف بعاقل يدعي النبوة والصدق ويريد من الأمم كلها تصديقه واتباعه، وهو أشد الناس حرصاً علي إجابتهم. وكيف اتبعته تلك الجماعات من قريش والأوس والخزرج واليهود والنصاري مع كثرتهم في جزيرة العرب، وهم يسمعونه يكذب ويبهت وهو يعلم أنهم يعلمون أنه قد كذب في ذلك، وهذا لا يكون مثله ولا يقع من العقلاء.

ومن تدبر الأمور يعلم جهل من ادعي علم اليهود والنصاري بما قدمنا بأدني تأمل، وكيف لم يجر في هذا قول منه فيقول له أعداؤه من قريش وغيرهم: ادعيت الصدق والنبوة ثم كذبت الكذب الظاهر وبهت الأمم البهت المكسوف، فقلت المسيح لم يقتل ولم يصلب، وهذه الأمم كلها تعلم ذلك علماً لا يرتاب به كما تعلم أن موسي وعيسي كانا في الدنيا، ومن كانت هذه سبيله لم يصدقه عاقل ولم يكن له رئاسة، وكيف لم يقولوا لمن اتبعه: يا هؤلاء، أكفرتم آباءكم، وضللتم أسلافكم، وأنفقتم أموالكم، وعاديتم ملوك الأرض وجبابرتها وجميع الأمم، وسفكتم دماءكم في طاعة كذاب قد عرفتم كذبه وبهته.

وقد قيل لبعض مجادلي اليهود ونظارهم ممن قد قرأ الكتب، وأكثر الاختلاف إلي العلماء وكتب كتبهم، وادعي أنه يتقدم علي علمائهم من أهل عصره: أليس إنما يعرف الأخبار من تأخر عمن تقدم؟ فقال: بلى، قالوا له: أليس اليهود الذين كانوا مع محمد ﷺ وفي زمانه قد علموا أن موسي قد قال إن شريعته مؤبدة؟ فقال بلي: فقيل له: فلم لم يقولوا لمحمد أنت قد زكيت

موسى وصدقته ووثقته وهو قد قال ووصي بأن شريعته مؤبدة؟ وفي هذا كفاية في كذبك وبطلان قولك، وهذا أمر ظاهر بين يستدركه رعن النساء فضلاً عن عقلاء الرجال. فأين كانوا عنه وقد خرجوا معه وفي عداوته إلي شدائد الأمور، ومن شتمه وهجوه والغدر به ومساعد قريش في محاربته وبذل الأموال والمهج في مكارهه؟ فقال: قد قالوا ذلك له وأقاموا الحجة به عليه.

فقيل له: من أين لك العلم بهذه الدعوي؟ فقال: قد علمت ذلك، فقيل له: فلم لم يعلمه خصومك كما علمته؟ فقال: مجّته الأسماع، فقيل له: ما تزيد علي الدعاوي: فإنك ادعيت أن ذلك قد كان. فقيل لك من أين لك العلم به ولم لا علمه خصومك؟ فادعيت أن الأسماع مجّته، فانتقلت من الدعوي إلي دعوي، وقرنت الدعوي بدعوي، ولا فرق بين دعواك هذه وبين دعوي من ادعي أن اليهود حين قالوا هذا له أحيا الله موسي وهرون وأظهر علي أيديهما الآيات والمعجزات فكاشفا محمداً وشافهاه وأقاما الحجة عليه بمشهد من اليهود ومن أصحابه، وأن ذلك قد كان وعلم ولكن مجته الأسماع، فما أتي بشئ.

واعلم أن أقوي حجج اليهود هو دعواهم أن موسي نص علي ذلك ووصي به وقد مر لك الكلام عليه من غير وجه فما يحتاج في الرد علي اليهود أكثر منه.

فإن قيل: فأنتم قد طالبتم هذه الطوائف التي ادعت هذه الدعاوي وادعت العلم بها، فقلتم لليهود والنصاري: لو كان علمكم بالصلب لهذا الشخص قد حصل بإخبار جماعات كثيرة شاهدت ذلك لعلمنا ذلك بخبركم وبسماعنا منكم كما علمتم بإخبارنا لكم قتل جعفر وحمزة وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وقلتم: لو نص موسي النص الذي تدعونه وكنتم قد علمتم ذلك بإخبار الجماعات لكم لعلمنا ذلك بخبركم كما علمتم بإخبارنا إياكم عن نبينا إن شريعته مؤبدة. وقلتم للإمامية وطبقات الرافضة: لو كان النبي نص علي ما تدعون ووصى أمته بذلك وفرضه عليهم، وكان اعتقادكم لذلك علماً

حصل لكم من قبل الجماعات التي أخبرتكم بذلك، لعلمنا ذلك بإخباركم إيانا وسماعنا منكم كما علمتم وعلمنا نص عمر علي أهل الشوري، وكما علمتم وعلمنا نص أبي بكر علي عمر، ونص معاوية عي يزيد، ونص عبد الملك علي الوليد، ونص المنصور علي المهدي، فلم لا علم انيهود والنصاري والرافضة أن هذه الأمور لم تكن كما علمتم.

قيل له: لو كانت، لجاءت مجيء أمثالها ما ذكرناه وتحصل العلم بها لنا كحصوله فيّ تلك الأمور، وإنما يعلم أن ذلك لم يكن بما يستدل به كما استدللنا، ومن لم يستدل جاز أن يعتقد أن ذلك قد كان وإن لم يكن لتركه النظر والاستدلال، ويكون اعتقاده لذلك ليس بعلم وخبره ليس بصدق وإن ظنه علماً و صدقاً.

ولسنا ندعي علي هذه الطوائف أنها قد علمت وكابرت، وهذا يكون الأصل فيه أن يخبر به الواحد والاثنان أو النفر القليل، فيقولون: أخذنا هذا عن جماعات كثيرة فيصدقهم من سمعهم ويحسن الظن بهم، ويأتي[1] من بعد هؤلاء فيصدقهم، ويكثر من يعتقد ذلك، ويقول: من قبلي قد أخذ هذا عن جماعات فتكثر أهل هذه الدعاوي بعد ذلك ويغترون بكثرتهم.

وربما كان أصل المقالة تأويل آية من كتاب أو من قول من يقتدي به فيعتقد التالي له أنه نص فيقول: قد نص موسي أو عيسي أو محمد صلي الله عليهم علي كذا في آية كذا في يوم كذا ويذكر ذلك القول. وذاك القائل ما أراد بقوله ما أراده هذا المتأول ولا قصد قصده. مثل ما أولت القرامطة في قوله تبارك وتعالي ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾[2]، قالوا: فقد أخبر أن من دخل مكة يأمن من القتل والخوف ونحن نري الناس فيه يخافون ويقتلون، فقد ظهر كذبه، فإنا قد قتلنا المسلمين فيه، ولكن أتباع محمد ﷺ حمير لا يعقلون، والله تبارك وتعالي ما أراد ما ظنوا، ولا هذا خبر وإن كان لفظه لفظ الخبر، وإنما

---

(١) في المخطوط: ويأت.

٢) سورة آل عمران آية ٩٧ .

هو أمـر بأن من دخله فـينبـغي أن يؤمن ولا يخاف ولا يحل لأحـد أن يخيفـه. وهذا مـثل قـوله ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾، ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾[١] وما أشبهه، فإن ظاهر هذا الخبر ومعناه الأمر، أي يجب علي المطلقة أن تتربص، وعلي الوالدة أن ترضع. ولكن الباطنية يقصدون البوادي والعجم ومن لم يشتغل بالعلم فيخدعونه بأنواع الخدائع، ويحلفونهم علي كتمان ما يسيمعون، فيغترون بهم. وهم أفسدوا من بالبحرين، وكان ابتداء أمرهم معهم التشيع، ثم رقوهم درجات إلي أن جاؤوهم وجاهروهم بتكذيب الأنبياء، فصار بتلك النواحي عداوة الإسلام مناكدة إلي هذه الغاية.

ولإفراط جهل هؤلاء ما تم عليهم وإلا ففي نص هذا القرآن جواز القتل في المسجد الحرام. أما تسمع قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾[٢] فأي شأن أبين من هذا. ومثله قوله عز وجل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾[٣] وقد قتل ممن آمن بالنبي ﷺ قبل الهجرة وقتل فيه منهم قبل الفتح، وقد قتل هو ﷺ يوم الفتح فيه قوماً، والأمر في ذلك ظاهر، ولا يذهب مثل هذا إلا علي الغاية في الغفلة.

فإن كان الأمر علي ما ظنه هؤلاء الجهال، فكيف لم تقل قريش والعرب واليهود والنصاري وأعداء رسول الله الذين كانوا معه وهم في طلب عثرة تكون له مثل ما قاله هؤلاء الجهال وأنكروا عليه ذلك.

ومما قاله هؤلاء الزنادقة أيضاً: أن محمداً قد يرجع عما كان يدعيه من اليقين في أمره وأظهر الشك بقوله في كتابه: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾[٤] وقال: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾[٥].

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٨، ٢٣٣ .
(٢) سورة البقرة آية ١٩١ .
(٣) سورة البقرة آية ٢١٧ .
(٤) سورة الأحقاف آية ٩ .
(٥) سورة يونس آية ٩٤ .

فقيل لهم: إن كان أفاد بهذا الذي ظننتم، فلم كان أعداؤه من قريش والأعراب واليهود والنصاري أنكروا ما أنكرتم؟.

وكذا نقول لمن قال: إن أصحاب محمد ﷺ ارتدوا بعده، فقيل له: من أين لك هذا؟ قال من نص القرآن لأنه قال: ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾[1]، فيقال له: أنت أسوأ حالاً في هذا من أولئك، لأن هذا ليس بخبر ولا ظاهره الخبر، وإنما ظاهره الاستفهام، والله لا يستفهم لأنه بكل شئ عليم، وإنما المراد به التثبيت والتنبيه كما قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾[2] أي لا يخلدون ولا ينبغي لهم الخلود، وكذلك أولئل لا يرتدون ولا ينبغي لهم أن يرتدوا، ولما قال بعض المبتدعة بالتشبيه، وتأولوا النصوص قلنا لهم هذا.

وقد كثرت البدع والكذب علي الأنبياء بما لم يقولوه ولا أراده، ويدعون المبتدعة أن لهم سلفاً أمثالهم حتي يتصلوا بالأنبياء فتغرهم كثرتهم وتغرهم زعماؤهم.

على أن النصاري لو رجعت إلي أخبارها وإلي ما في أناجيلها الأربعة لعلمت أن المقتول المصلوب غير المسيح، إذ كانت هذه الأناجيل معولهم. لأنهم لما انتهوا إلي ذكر المقتول المصلوب والصلبوت قالوا: إن اليهود ق صدوا في خميس الفسح إلي هيريدس صاحب فيلاطس ملك الروم، وقالوا: هاهنا رجل منا قد أفسد أحداثنا وغرهم ولنا عليك في الشرط أن تمكننا ممن هذا سبيله لننفذ حكمنا فيه؛ فقال لأعوانه: اذهبوا مع هؤلاء فهاتوا خصمهم، فخرج الأعوان مع اليهود فصاروا بباب هذا السلطان، فأقبل اليهود علي الأعوان فقالوا لهم: هلي تعرفون خصمنا فقالوا: لا، فقال اليهود ولا نحن نعرفه، ولكن امشوا معنا فإنا لا نعدّم من يدلنا عليه.

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٣٤ .

فمشوا، فلقيهم يهوذا سرخوطا وكان أحد خواص المسيح وثقاته وكبار أصحابه وأحد الإثني عشر، فقال لهم: أتطلبون يسوع الناصري قالوا: نعم، قال: فمالي عليكم إن أنا دللتكم عليه؟ فحل بعض اليهود عن دراهم كانت معه فعد ثلاثين درهماً وسلمها إليه وقال: هذه لك. فقال لهم: هو كما قد علمتم صديقي وأستحي أن أقول هذا هو، ولكن كونوا معي وانظروا إلي الذي أصافحه وأقبل رأسه، فإذا أرسلت يدي من يده فخذوه.

فساروا معه وقد كثر الناس ببيت المقدس واجتمعوا إليه لإقامة هذا العيد من كل مكان فصافح يهوذا سرخوطا رجلاً وقبل رأسه وأرسل يده من يده وغاص في الناس، فأخذه اليهود والأعوان، فقال المأخوذ: ما لكم ولي؟ وجزع جزعاً شديداً؛ فقالوا له: السلطان يريدك، فقال: مالي وللسلطان؟ فجاءوا به فأدخلوه علي هيريدس وقد طار عقله خوفاً وجزعاً وهو يبكي فما يملك نفسه، فرجمه هيريدس لما رأي به من الخوف، فقال لهم: خلوا عنه واستدناه وأقعده وبسطه وسكّن منه وقال له: ما تقول فيما يدعي هؤلاء عليك من إنك المسيح ملك بني إسرائيل، هل قلت هذا أو دعوت إليه؟ فأنكر أن يكون قال هذا أو ادعاه ومع هذا فما يسكن قلقه، وهيريدس يسكنه ويقول له: اذكر ما عندك من حجة إن كان لك، فلا يزيد علي إنكاره وأنه لا يقول ذلك، وأنهم هم الذين يقولون ذلك لا هو، وأنهم قد ظلموه بهذه الدعوي وتقولوا عليه، فقال هيريدس لليهود: ما أراه يوافقكم ولا يقول ما تدعونه وما أراكم إلا متقولين عليه ظالمين له، هاتم الطست والماء لأغسل يدي من دم هذا الرجل.

ووجه فيلاطس ملك الروم الكبير إلي هيريدس يقول له: بلغني أن اليهود رفعوا إليك خصماً لهم في أرب ومعرفة فأنفذه إلي لأفاتحه وأنظر ما عنده، فأنفذه إليه؛ فأدخل علي فيلاطس وهو في حالة من الجزع والخوف والقلق، فسكنه الملك وسأله عما ادعاه عليه اليهود من أنه المسيح، فأنكر أن يكون قال ذلك ولم يزل يسائله ويباسطه ليذكر ما عنده وما معه وليسمع منه حكمة أو يستفيد منه أدباً أو وصية فما وجد عنده شيئاً ولا زاده علي القلق

والخوف والجزع والبكاء والانتحاب فرده إلي هيريدس وقال له: ما وجدت في هذا الرجل ما قيل فيه وما عنده خير، ونسبه إلي النقص والغباء، فقال هيريدس: الآن هو الليل فاذهبوا به إلي الحبس، فذهبوا به.

فلما كان من الغد بكر اليهود وأخذوه وشهروه تلك الشهرة، وعذبوه ونالوه بأنواع العذاب، ثم ضربوه في آخر النهار بالسوط، وجاؤوا به إلي مبطخة ومبقلة وصلبوه وطعنوه بالرماح ليموت بسرعة، ومازال يصيح بأعلي صوته وهو مصلوب علي خشبة: ياإلهي أخذلتني؟ يا إلهي لم تركتني؟ إلي أن مات. وأن يهوذا سرخوطا لقي اليهود وقال لهم: ما ذا صنعتم بالرجل الذي أخذتموه أمس؟ قالوا: صلبناه، فتعجب من هذا واستبعده، فقالوا له: قد فعلنا، وإن أردت أن تعلم ذلك فصر إلي المبطخة الفلانية، فصار إلي هناك، فلما رآه قال: هذا دم بريئ، هذا دم زكي، وشتم اليهود، وأخرج الثلاثين درهما الذي أعطوه دلالة فرمي بها في وجوههم وصار إلي بيته فخنق نفسه.

فانظر كم في هذا من عجب:

منها إقرار اليهود والروم أنهم ما عرفوه، وأخري أن الذي دلّ عليه لو كان ظاهر العدالة لما عرف بخبره ولا بشهادته شئ، وأخري جزعه وقلقه وإنكاره، ولو كان المسيح لأخبر بذلك ولقال: أنا هو الذي بشّر بي الأنبياء، وأنني كذا وكذا، سيما والحاكم بينه وبين اليهود ملك الروم وهم أعداء اليهود، وكان قد أقام الحجة عليهم، هذا لو كان نبياً[1]، فكيف وهو عند النصاري إله، فإن الأنبياء يبدؤون الدعوي والحجة عند من لم يسأل ذلك فكيف بمن يسأل ويرغب إليهم.

وأخرى أن يهوذا سرخوطا قال: هذا دم بريئ، وبريئ منهم ورد الدراهم ورجع إلي بيته وقتل نفسه ندماً علي ما كان منه. فقلنا للنصاري: فكم في هذا من دلالة علي أن المقتول المصلوب غير المسيح، فأنتم ا إلي حجج العقول

---

(١) في الأصل: نبي.

ترجعون، ولا إلي ما كتبتم وسطرتم تتدبرون، ولا علي ما نعلم تعولون، ولكنكم تمشون مكبّين علي وجوهكم.

وفي الإنجيل معهم أن المسيح أخذ صندوقاً يخزن فيه الذهب والفضة وكان خازنه يهوذا سرخوطاً الساعي به، وأن إمرأة زانية أهدت إليه طيباً قيمته ثلثمائة دينار، وجعلت تمسح به قدميه وتمسح شعرها بأسفل قدميه، وأن شمعون جاء وأنكر ذلك عليه، وقال: هذا سرف وفساد، وكان ينبغي أن تتصدق بثمن هذا علي الفقراء[1].

ولهذا ما قالت طائفة من اليهود أن يسوع بن مريم هذا الذي يعتقد المسلمون والنصاري ربوبيته الذي صلب وقتل هو ابن يوسف النجار، وهو رجل من اليهود برٌ تقيّ صارت له رئاسة في اليهود، فحسده بعضهم للرئاسة وسعي به وأذله إلي أن قتل مصلوباً. وهو ما ادعي ما يقوله النصاري ولا ما يقوله المسلمون من أنه المسيح وأنه نبي، قالوا ألا ترون أنه قد سئل عن ذلك عند هيريدس وعند فيلاطس وأنكر ذلك كله، ولو كان نبياً لاحتج بحجة وآيات، والبشارات به وأنه مولود من غير ذكر.

قالوا: ومما يؤكد هذا، أن النصاري قد كتبت في أناجيلهم أن يسوع هذا قال لأصحابه: ما يقول الناس فيّ؟ قالوا: منهم من يقول: إنك إليا ومنهم من يقول: إنك يوحنا الصائغ، قال: فأنتم أصحابي ما تقولون فيّ ومن أنا عندكم؟ قالوا الذي عندنا إنك المسيح، قال: لا تقولوا هذا.

قالت هذه الطائفة من اليهود: أما ترونه قد نهاهم أن يقولوا أنه المسيح، فما الذي يبقي بعد هذا من البيان. قالوا: وقد خاصمه اليهود ثلاث سنين، ورفعوه إلي الملوك فما حصل عليه إقرار أنه ادعي أنه المسيح ولا أنه نبي، ولا شهد عليه بذلك وليّه ولا عدوه. والآيات والمعجزات التي تدعيها النصاري له لا أصل لها ما ادعاها هو ولا أحد من أصحابه في زمانه ولا في الفرق الذين

---

(١) إنجيل متي، الإصحاح ٢٦ .

يلونهم، وإنما ادعي له ذلك بعد مضيه ومضي أصحابه بالأزمان والأحقاب، كما ادعت النصاري ذلك لبولص اليهودي وهو معووف الحال والحيل والكذب والسقوط، وكما ادّعوا ذلك لجورجس والابا مرقس، وكما يدعونه في كل زمان لرهبانهم ورواهبهم. وكله لا أصل له. فاحفظ رحمك الله هذا فإنه يؤكد الحال في أن المسيح لم يصلب، وأن المصلوب غيره صلي الله عليه، وهو شديد علي النصاري من كل وجه.

وفي الإنجيل أن المسيح كان قائماً في ناحية موضع الصلب. وأن مريم أم المسيح جاءت إلي الموضع فنظر إليها المصلوب فقال لها وهو علي الخشبة: هذا ابنك، وقال للمسيح: وهذه أمك. وأن مريم أخذت بيده ومضت من بين الجماعة[1].

وفي الإنجيل أيضاً أن المسيح مات من غير أن يمسه شئ، وفيه إن إمرأة سامرية قالت للمسيح: أنت رجل يهودي ونحن لا نسقي اليهود الماء، فقال لها: صدقت أيها المرأة في جميع ما قلت.

وفيه أن المسيح قال لأصحابه: إن الكهنة والربانيين جلسوا علي كرسي موسي وهم يفتونكم فأقبلوا منهم فتياهم ولا تعملوا مثل أعمالهم، فإنهم يقولون وما يعملون.

وفيه أن مريم المجدلانية ومريم الأخري إنما امتنعتا عن بعثه الطيب لسيدنا المسيح يوم السبت للسنّة في حفظ السبت.

وفيه أن المسيح قال: شبهت جلوس هذه القبيلة السوء بصبيان جلوس في السوق يناديهم أصحابهم: غنينا لكم فلم ترقصوا ونحنا لكم فلم تبكوا، أتاكم يحيي لا يأكل ولا يشرب فقلتم: لا يأكل ولا يشرب، وأتاكم من البشر أكول شروب فقلتم: أكول شروب يدخل بيوت الزناة ويجالس الخطائين.

---

(١) انجيل يوحنا الإصحاح ١٩-فقرة ٢٦: «فلما رأي يسوع أمه والتلميذ الذي كان يحبه واقفاً قال لأمه: يإمرأة ، هو ذا ابنك، ثم قال للتلميذ: هو ذا امك».

وفيه أنه مر على شمعون الصفا فقال له: يا شيطان.

وفيه أنه قال لبني إسرائيل: يا حيّات. أولاد الأفاعي، تقرؤون الكتاب ولا تعقلون، تغسلون خارج الإناء وداخله مملوءة قذراً، تطلبون البر والبحر والسها، والجبل صاحباً لكم، فلو أوجدتموه علمتوه طرائقكم حتي يصير شرا منكم، فلا أنتم دخلتم ملكوت السماء، ولا تركتم الناس يدخلون ملكوت السماء إذا لم تدخلوا.

فإن قال قائل: لعمري قد تبين أن النصاري قد قالت في عيسي بن مريم عليه السلام: أنه ليس بنبي ولا رسول لله ولا بعبد صالح، وأنه إله ورب وخالق ورازق، وأن الله ثالث ثلاثة، وأنه قتل وصلب، وقد قال صاحبكم في كتابكم: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[1]، فقالت النصاري: فهذا كذب، فإنا وإن قلنا فيه أنه إله فما قلنا في أمه أنها إله.

قيل له: ما خبر أنهم قالوا ذلك، وما ها هنا خبر فيقع فيه صدق أو كذب، وإنما قال: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وليس هذا خبراً، ولا من لا يعرف من العربية قليلاً ولا كثيراً، وإنما ظاهر هذا القول الاستفهام والاستعلام، والله جل ثناؤه لا يجوز عليه ذلك لأنه إنما يستعلم ويستفهم من لا يعلم ما استفهم وسأل عنه، وإما معناه التقرير لاستخراج الجواب من المسؤول. وهذا كقوله لموسي صلي الله عليه: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ * وهو عز وجل أعلم بذلك من موسي. ولقوله لإبليس: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[2] وإذ آمرك. وهو عز وجل أعلم من إبليس بالمانع له فقال للمسيح: هل قلت هذا في نفسك أو في أمك الوالدة لك وهي أخص الناس بك وأوجبهم حقاً عليك وأجلهم عندك، لتتبين براءة ساحته عليه السلام من كل وجه. فقد بطل ما ظنه السائل من أن هذا خبر وهذا جواب شافٍ كافٍ.

---

(١) سورة المائدة آية ١١٦ . (٢) سورة طه آية ١٧ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٢ .

وأيضاً ففي النصاري من قد قال بمعني هذا وإن لم يصرح بلفظه، لأنهم قالوا: إن مريم صفت حين قبلت الجوهر الإلهي وولدته، وكل جوهر لا يقبل إلا ما في جوهره وسنخه ولا يلد إلا ما في جوهره، وهذا جواب ثان بين نير في أن فيهم من قد صرح بذلك. وهذا بين في كتب البيعة الموجودة بكور الأهواز وغيرها من كور العراق بالقلم السرياني، وقد ترجم منه في رسالة كتبها عبد يسوع بن بهرين أسقف حران والرقة والمصيّر بعد ذلك مطراناً علي الموصل والجزيرة إلي قس يعقوبي يقال له بادوس: أنت لا تنكر أن البتول الطاهرة إله كما تراه أنت، بل إنسان كما نراه نحن.

وهذا تصريح من هؤلاء بأن مريم إله، والنسطورية تخالفهم في ذلك وتجادلهم، وهذا بيّن وإنما ينكره من لا يعرف أقاويل النصاري وحقيقة النصرانية.

وعلي أن هذه الطوائف الثلاث منهم من يقول في مريم أنها أم المسيح ابن الله في الحقيقة ووالدته في الحقيقة، لا أم لابن الله الإلهي، ولا والدة لابن الله غيرها، ولا أب لابنها إلا الله، ولا والد لابنها إلا الله، وأن الله اختارها لنفسه ولولادة ولده وابنه من سائر النساء، ولو كانت كسائر النساء لما ولدت إلا عن وطء الرجال لها، وإنما اختصت بهذا لأنها حبلت بابن الله وولدت ابن الله الذي لا ابن له في الحقيقة إلا هو ولا ولد له إلا هو، وأنها علي العرش جالسة عن يسار الرب والد ابنها، وابنها عن يمينه. وهم يدعونها ويسألونها سعة الرزق وصحة البدن وطول العمر وغفران الذنوب، وأن تكون لهم عن ابنها ووالد ابنها سوراً وسنداً وذخراً وشفيعاً وركناً. فلو أن إنساناً عظّم إنساناً عشر هذا التعظيم وقال فيه عشر هذا القول لجاز في لغة العرب بل في كل لغة أن يقال قد اتخذه إلهاً. ألا تري إلي قول الله تعالي ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[1] وهم ما صاموا لهم ولا صلوا ولكن قلدوهم، فحرموا عليهم الحلال فحرموه، وأحلوا لهم الحرام فاستحلوه، وهذا دون ما قالوه في مريم.

---

(١) سورة التوبة آية ٣١ .

وفي هذا المعني قوله ﷺ: «تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة[١]» لما غلب عليه حب ذلك وشغفه به صار كالعبد له، فلو لم يكن معنا تلك النصوص فيمن قال منهم إنها إله فكان معنا خبر ونص أنهم ما قالوا إنها إله لجاز مع التعظم أن يطلق، فكيف وما أخبر أنهم ما قالوا إنها إله، ولقد عظموها ورفعوها علي الملائكة و لأنبياء وقالوا فيها ما يقال في الإله، وسألوها ما يسأل الإله من العافية والكفاية في الدنيا والآخرة كما تقدم لك ذلك حتي أن اليعقوبية لتقول في مناجاتها لمريم عليه السلام: يا مريم يا والدة المسيح كوني لنا سوراً وسنداً وذخراً وركناً.

والنسطورية تقول: يا والدة المسيح كوني لنا كذلك، ويأتون مسألة اليعقوبية ويقولون لليعقوبية: لا تقولوا يا والدة الله وقولوا يا والدة المسيح، فتقول اليعقوبية لهم: فالمسيح عندنا وعندكم إله في الحقيقة فأي فرق بيننا وبينكم في معني هذا، ولكنكم أردتم أن تمخرقوا عند من لا يعرف هذا من قولنا وقولكم فتوهمونه أنكم تتنزهون عن هذا وأنكم تقاربون المسلمين في التوحيد.

وأعلم أن أفجاج النصاري يعتقدون أن الله اختار مريم لنفسه ولولده وتحظّاها كما يختار الرجل المرأة ويتحظّاها لشهوته لها، وقد حكاه النظّام والجاحظ، وقال: إنما يفصحون بهذا عند من يثقون به. وقد قال ابن الأخشيد هذا عنهم في «المعونة» وقال: إليه يشيرون، ألا تري أنهم يقولون لو لم يكن والداً لكان عقيماً والعقم آفة، وهذا قول جميعهم وإلي البضاع يشيرون. وأنت تجد ذلك في كتاب «المعونة» وفي كتاب الجاحظ علي النصاري، وأظن أبا جعفر الإسكافي في ذكر هذا في كتابه علي النصاري، وكل من خالط الرهبان وأرباب البيع وطاولهم وأنسهم عرف ذلك منهم.

فإن قال قائل: ادعيتم أن هذه الطوائف قد خالفت المسيح في الأصول

---

(١) رواه البخارى – حديث رقم ٢٨٨٦ ، ٢٨٨٧.

والفروع وقد عرفنا بما ذكرتم مخالفتهم له في الأصول فمن أين لكم أنهم قد خالفوه في الفروع؟ قيل له: كان المسيح يتدين بالطهارة، ويغسل الجنابة، وبوجوب غسل الحائض، وهذه الطوائف لا تختلف بأن ذلك ليس بواجب، وأن للإنسان أن يصلي وهو غير مطهر وغير مستنج، ويصلي وهو جنب، ولا يختلفون في أن الجنابة والبول والغائط وغير ذلك لا يقطع الصلاة، وأن المصلي له أن يصلي وهو يبول وهو يتغوط وهو يجامع وأن كان الجماع في زني، فما هذا شئ يقطع الصلاة ولا يفسدها بل الأفضل عندهم أن يصلي وهو جنب وهو يتغوط ويبول ويضرط، لأن ذلك أبعد من صلاة المسلمين واليهود، وكل هذا خلاف صلاة المسيح.

وكان المسيح يقرأ في صلاته ما كان الأنبياء وبنو إسرائيل قبله وفي زمانه، يقرؤون من كلام الله ومن قول الله من التوراة ومن زبور داود، وهذه الطوائف من النصاري إنما تقول في صلاتها كلاماً قد لحنه الذين يتقدمون ويصلون بهم، فجري مجري النوح والأغاني فيقولون: هذا قداس فلان، ينسبونه إلي الذين وضعوه.

وهم يصلون إلي المشرق وما صلي المسيح إلي أن توفاه الله إلا إلي المغرب وبيت المقدس، وقبله داود وأنبياء بنى إسرائيل، وقد اختتن المسيح وأوجب الختان كما أوجبه من قبله موسي وهارون والأنبياء، وما صام هو وأصحابه إلي أن خرج من الدنيا إلا اليوم الذي صامه بنو إسرائيل. فأما هذه الخمسون يوماً التي تصومها النصاري، وصوم نينوي، وصوم العذاري فما صام شيئاً منها قط، ولا أكل في الصوم ما يأكلونه، ولا حرم فيه ما يحرمونه، ولا اتخذ يوم الأحد عيداً قط، ولا بني بيعة قط. ولا عطل يوم السبت ساعة واحدة، ولا أكل خنزيراً قط بل حرمه ولعن أكلته كما فعل الأنبياء قبله.

والنصاري تزعم أنه رقي مريم المجدلانية فأخرج منها سبع شياطين وأن الشياطين قالت له: أين نأوي؟ فقال لها: اسلكي هذه الدابة النجسة، يعني الخنزير. وحرم ذبائح من ليس من أهل الكتاب وحرم مناكحتهم، وسار في

المناكح والطلاق والمواريث والحدود سيرة الأنبياء قبله، وليس عند هؤلاء النصاري علي من زني أو لاط أو افتري أو سكر حدٌ البتة ولا عذاب في الدنيا ولا في الآخرة.

وفي الجملة إن المسيح جاء لإحياء التوراة وإقامتها، وقال: إنما جئتكم لأعمل بالتوراة وبوصايا الأنبياء قبلي، وما جئت ناقضاً بل متمماً، ولأن تقع السماء علي الأرض أيسر عند الله من أن تنقض شيئاً من شريعة موسي، ومن نقض شيئاً من ذلك يدعي ناقصاً في ملكوت السماء. ومازال هو وأصحابه كذلك إلي أن خرج من الدنيا وقال لأصحابه اعملوا كما رأيتموني أعمل ووصوا الناس بما وصيتكم به، وكونوا معهم كما كنت معكم، وكونوا لهم كما كنت لكم. ومازال أصحابه بعده علي ذلك وكذلك، ثم الذين بعد القرن الأول من أصحابه، ثم من بعدهم بالدهر الطويل. ثم أخذوا في التغيير والتبديل، والبدع في الدين، وطلب الرئاسة والتقرب إلي الناس بما يهوون، ومكايدة اليهود وشفاء الغيظ منهم وإن كان فيه ترك الدين. وهذا بين في الأناجيل التي معهم وإليها يرجعون، وفي كتابهم المعروف بكتاب افراسكس، فإن فيه أن قوماً من النصاري خرجوا من بيت المقدس وأتوا انطاكية وغيرها من الشام؛ فدعوا الناس إلي سنة التوراة، وإلي تحريم ذبائح من ليس من أهلها، وإلي الختان، وإلي إقامة السبت، وإلي تحريم الخنزير، وإلي ما حرمته التوراة. وإن ذلك شق علي الأمم واستثقلوه، فاجتمع النصاري ببيت المقدس، وتشاوروا فيما يحتالون به علي الأمم ليجيبونهم ويطيعونهم، فأوجب رأيهم مداخلة الأمم والرخص لهم والانحطاط في أهوائهم، وترك مخالفتهم، والاختلاط بهم، والأكل من ذبائحهم، والتخلق بأخلاقهم، وتصويبهم فيما هم عليه. وانشؤوا في ذلك كتاباً.

وقد قال بولس في الكتاب الذي يسمونه السليح: أنا قلت لهم إلي كم تهودون الناس؟ وقال في السليحين: كنت مع اليهودي يهودياً ومع الرومي رومياً ومع الأرمائي أرمائياً. وبولس هذا عندهم أجل من موسي وهارون وداود

وجميع الأنبياء، وإذا قرئت رسائله وكلامه في البيعة قاموا قياماً إعظامًا وإجلالاً له ولكلامه؛ ولا يفعلون ذلك بالتوراة التي هي عندهم كلام المسيح وهو كتبها لموسي وأرسله إلي خلقه وخلق له البحر وقلب له العصا حية، ولا في الأناجيل وفيها كلام المسيح، وهو يقول لليهود: التوراة سنة حسنة لمن عمل بها، ويقول للروم وغيرهم من أعداء موسي والأنبياء: التوراة مهيجة للبشر، وإذا وضع عن الناس شرائع التوراة فقد كمل بر الله وتم فضله، هذا كله مع النصاري وأعظم منه وأفحش. وقد عملوا عمل المسيح بالتوراة ووصيته الناس بالعمل بها.

أنظر كيف ينسلخ الناس من العمل بشرائع الأنبياء الذين يدعون أنهم عليها ويخرجون منها، واعتبر وكن علي حذر، فقد بدت هذه السيرة في هذه الأمة، فكم فيهم ممن قد عطل وصايا النبي ﷺ ونبذ سنته وهجر كتابه لأنه زعم أنه مغير مبدل، وآخر يقول له باطن غير ما عليه الفقهاء والعلماء، إلي غير ذلك من أنواع البدع التي قد نشأت في الإسلام وغلب أهلها بالكثرة أهل الحق فيبدعونهم ويسبونهم وينفروا عنهم.

وهكذا تتغير ملل الأنبياء عليهم السلام ويموت العلم، كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من صدور الرجال، ولكن يموت العلم بموت العلماء، فإذا ماتوا اتخذ الناس رؤساء جهالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا». ثم المستأكلة ومن تكسبب بالدين، وقد قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1] فهؤلاء العباد وهؤلاء العلماء وقد عرفك الله حال كثير منهم، فكيف بمن ليس بعالم ولا عابد. فاحذر كما حذرك الله، واقبل وصية رسول الله ﷺ.

واعلم أن دين المسيح وديانات الرسل عليهم السلام لم تتغير ولم تتبدل جملة واحدة ولكن شيئاً بعد شئ، وفي كل عصر وفي كل حين حتي تكامل

(١) سورة التوبة آية ٣٤.

تغيرها، وما زال أهل الحق فيها يقلون وأهل الباطل يكثرون حتي غلبوا ومات بهم الحق، فكان أصحاب المسيح بعده مع اليهود وبني إسرائيل في كنائسهم يقيمون صلاتهم وأعيادهم في مكان واحد وبينهم الخلاف في شأن المسيح، وكانت الروم تملكهم، وكانت النصاري تشكو اليهود إلي ملوك الروم، وتبدي لهم الضعف الذي فيهم وتسترحمهم فيرحمونهم، وكثر هذا، فكانت الروم تقول لهم: بيننا وبين اليهود عهد أن لا نغير أديانهم، فلو خرجتم من أديانهم وفارقتموهم وصليتم إلي المشرق كما نصلي وأكلتم ما نأكل واستبحتم ما نبيح نصرناكم وأعززناكم، ولم يكن لليهود عليكم سبيل بل صرتم أعز منهم. قالوا: نفعل. قالوا فاذهبوا فهاتوا أصحابكم وهاتوا كتابكم.

فجاءوا بأصحابهم فأخبروهم بما كان بينهم وبين الروم، وقالوا لهم هاتوا الإنجيل وقوموا حتي نصير إليهم، فقال أولئك لهم: بئس ما صنعتم ولا يحل لنا أن نمكن الروم الأنجاس من الإنجيل وقد خرجتم أنتم من الدين باجابتكم الروم، ولا يحل لنا مخالطتكم، بل وجبت البراءة منكم ومنعكم من الإنجيل والوصول إليه. فوقع بينهم الخلاف الشديد. وعادوا أولئك إلي الروم وقالوا لهم: ساعدونا[1] علي أصحابنا هؤلاء قبل اليهود، وخذوا لنا منهم كتابنا، فاستتر أولئك من الروم وفروا في البلاد، فكتب الروم فيهم إلي عمالهم بنواحي الموصل وبجزيرة العرب. فطلبوا فوقع منهم قوم فأحرقوا وقوم فقتلوا.

واجتمع الذين أجابوا الروم وتشاوروا فيما يعتاضون عن الإنجيل إذ قد فاتهم، فتقرر رأيهم علي أن ينشئوا إنجيلاً: وقالوا إنما التوراة موالد الأنبياء وتواريخ أعمارهم فنبني الإنجيل علي ذلك، وبذكر كل واحد منا ما حفظه من ألفاظ الإنجيل ومما تحدث به النصاري عن المسيح، فكتب قوم إنجيلاً ثم أتي من بعدهم قوم وكتبوا إنجيلاً، وكتبوا عدة أناجيل، وسقط عنهم الكثير مما في الأصل. وكان فيهم الواحد بعد الواحد. ممن يعرف أموراً كثيرة في الإنجيل الصحيح فأمسكوا عنها لتتم رئاستهم، ولم يكن فى ذلك ذكر الصليب ولا

---

(١) فى الأصل: أعدونا.

الصلبوت، وهم يزعمون أنها كانت ثمانين إنجيلاً، فلم تزل تقل وتختصر حتي بقي منها أربعة أناجيل لأربعة نفر عمل كل واحد في عصره إنجيلاً، وجاء من بعده فرآه مقصراً فعمل إنجيلاً هو عنده أصح من إنجيل غيره وأقرب إلي الصحة، ثم ليس فيها إنجيل بلغة المسيح التي كان يتكلم بها هو وأصحابه وهي العبرانية لغة ابراهيم الخليل وسائر الأنبياء، بها تكلموا وبها نزلت كتب الله علي هؤلاء وغيرهم من بني إسرائيل، وبها خاطبهم الله، فتركها هؤلاء. وقد قالت العلماء لهم: عدولكم معشر النصاري عن اللغة العبرانية وهي لغة المسيح والأنبياء قبله عليهم السلام إلي سائر اللغات حتي ما من نصراني يتلو هذه الأناجيل في فرض من فروضه بلغة العبراني حيلة ومكيدة وفراراً من الفضيحة.

فقال الناس لهم: إنما وقع العدول عنها لما قصده أصحابكم الأولون من الإدغال في المقالات، واحتيالاً في تدليس ما وضعوه من الأكاذيب وستراً لما احتالوا طلباً للرئاسة، وذلك أن العبرانية هم كانوا أهل الكتاب وأهل العلم في ذلك الزمان فغير هؤلاء النفر اللغة بل عدلوا عنها كلها لئلا يفهم أهل العلم مذهبهم وقصدهم لسترها فيفتضحوا قبل تمكن مذهبهم ولا يتم لهم. فعدلوا إلي لغات كثيرة ما تكلم المسيح وأصحابه بها، وليس أهلها من أهل الكتاب، ولا لهم علم بكتب الله وشرائعه، كالروم والسريانيين والفرس والهند والأرمن وغيرهم من الأعاجم، وتلبيساً واحتيالاً لستر العورة وتمام البغية في طلب الرئاسة من أولئك القوم القليل الذين طلبوها بالدين. ولولا ذلك للزموا لغة إبراهيم وولده والمسيح الذين بهم قامت البيّنة، وعليهم أنزلت الكتب، وكان ذلك أولي بإثبات الحجة علي بني إسرائيل وكفرة اليهود إذا ادعوا بلسانهم، ونوظروا بلغتهم التي لا يمكنهم دفعها، فاعرف هذا فإنه أصل كبير.

واعلم رحمك الله، أن هذه الطوائف الثلاث من النصاري لا تعتقد أن الله أنزل علي المسيح إنجيلاً ولا كتاباً بوجه من الوجوه، بل عندهم أن المسيح خلق الأنبياء وأنزل عليهم الكتب، وأرسل إليهم الملائكة. وإنما معهم أربعة

أناجيل لأربعة نفر، كتب كل واحد منهم إنجيله في زمانه، وجاء من بعده فما رضي إنجيل غيره، وكان إنجيله أولي. وهم يتفقون في مواضع ويختلفون في مواضع، وفي بعضها ما ليس في بعض، وهي حكايات قوم رجال ونساء من اليهود والروم وغيرهم، وإنهم قالوا: كذا، وفعلوا كذا وفيها من المحال والباطل والسخف والكذب الظاهر والتناقض البيّن شئ كثير. وقد تتبعه الناس وأفردوه، وإذا قرأه المتأمل عرف ذلك. وفيها شئ من كلام المسيح ووصاياه وأخباره قليل. فإنجيل منها عمله يوحنا، وإنجيل منها عمله متي، ثم جاء بعدهما مرقس فما رضي بإنجيليهما، ثم جاء بعدهم لوقا فما رضي بتلك الأناجيل فعمل إنجيلاً آخر، وكان عند كل واحد من هؤلاء أن صاحبه الذي تقدم وعمل إنجيلاً أنه قد ضبط أشياء وأخل بأشياء، وغيره أعرف وأضبط. ولو كان من قبله قد ضبط وأصاب لما احتاج أن يعمل هو إنجيلاً آخر غير كتاب من تقدم فيحكي كلامه علي وجهه ثم يشرحه، فاعرف هذا وإنما وضعه لأن غيره قد قصر.

وعند هؤلاء الطوائف من النصاري أن هؤلاء الأربعة أصحاب المسيح وتلاميذه، وهم لا يعلمون ولا يدرون من هم ولا معهم في ذلك إلا الدعوي فقط، بل قد ذكر لوقا في إنجيله أنه ما رأي المسيح، فقال لوقا مخاطباً للذي عمل له إنجيله وهو آخر من عمل من الأربعة: «عرفت رغبتك في الخير والعلم والأدب فعملت هذا الإنجيل لمعرفتي ولأني كنت قريباً إلي الذين خدموا الكلمة ورأوها». فهو قبل كل شئ قد أفصح بأنه ما رأي الكلمة -يعنون بالكلمة المسيح- ثم ادعي أنه رأى من رأي المسيح، وليس هاهنا إلا دعوي بأنه رآهم ولو كان ثقة لما علم بخبره شئ، ومع هذا فقد ذكر أن إنجيله أولي من إنجيل غيره. فلو تأمل النصاري لعلموا أنهم ليسوا علي شئ من هذه الأناجيل التي معهم، ولا معهم علم علي ما يدعيه أربابها والواضعون لها وأن الأمر في ذلك علي ما ذكرنا. وهو معلوم مذكور في إنصرافهم عن ملة المسيح إلي مذاهب الروم وتغريرهم وتعجلهم المنافع بسلطانهم وأموالهم.

وقد كان بولص هذا يهودياً خبيثاً شريراً، ساعياً في الشر، ومعيناً للأشرار، وثائراً في الفتن، طالباً للرئاسة والدولة، محتالاً فيا بكل وجه، وكان يقال له وهو يهودي: شاؤول، وكان يعين علي النصاري، ثم خرج عن بيت المقدس وغاب غيبة طويلة، وعاد إلي بيت المقدس وأخذ يعين النصاري علي اليهود ويقول لهم: قولوا كذا، واصنعوا كذا، وفارقوهم وقاربوا الأمم التي تعادي اليهود.

فقال له اليهود: كيف صرت نصرانياً وما الذي دعاك إلي هنا؟ فقال: الله تبارك وتعالي دعاني إلي ذلك، وكان من قصتي إني خرجت من بيت المقدس أريد دمشق، فأدركني الليل بظلمته وهبت ريح عظيمة وذهب بصري، وناداني الرب وقال لي: يا شاؤول أتلاطم الأشقياء تؤذي أصحاب ابني؟ فقلت: يا رب قد تبت، فقال لي: إن كان كما تقول فاذهب إلي حابيم اليهودي الكاهن ليرد إليك بصرك، فذهبت إليه وخبرته، فمسح يده علي بصري فسقط منه مثل قشور البيض وفلوس السمك، وأبصرت كما كنت، وأن الله استدعاني إليه إلي السماء، فأقمت عنده في السماء أربعة عشر يوماً، ووصاني بأشياء كثيرة، وقال لي: فيكم أموراً قبيحة لا أقولها لكم.

فسخر منه اليهود وتعجبوا من حمقه وقحته، وصاروا به إلى أصحاب قيصر ملك الروم عليهم، وكانوا إذ ذاك مغلوبين مع الروم. فقالوا: أما تعرف شاؤول هذا؟ فقال: بلي، اعرفه بالشر وهو يجيئنا في السعايات بالناس. فقالوا له: أنه قد ادعي كذا وكذا، وذكروا له ما قال. فاغتاظ الرومي منه وأمر به فبطح ليضرب، فقال له: أتضرب روميا؟ فقال: أو رومي أنت؟ قال: نعم، أنا علي دين قيصر ملك الروم بريء من اليهودية، فكف عنه لدخوله في دين الملك، وقال له: ها هنا مركب يأخذ إلي القسطنطينيةوأنت رومي وعلي دين الروم، فكن هناك إن كنت كما تقول، فقال: افعل، أنفذني إلي بلاد الروم، فصار إلي القسطنطينية، وتردد إلي الروم، ولزم باب الملك وأغري الروم

عداوتهم لهم، وما صنع بنو إسرائيل بهم، ومن قتلوا منهم، وخوفهم شر اليهود، وأنهم لا يأمنون دولتهم والكرّة عليهم، وذكر لهم كثرة أموالهم.

ومن عادة الروم لا تحتجب نساؤهم عن الرجال، وتركب إمرأة الملك في موكب الملك مكشوفة الوجه، وتخاطب الناس، وتأمر وتنهي، فتقرب بولس هذا إليها وخاطبها في شأن اليهود. ومن عادة الروم أن لا يحل للرجل أن يتزوج بأكثر من إمرأة واحدة ثم لا يفرق بينهما طلاق ولا هرم ولا عيب من العيوب بوجه ولا سبب، ولا يحل له غيرها إلي أن تموت. ونساء الروم تبغضن ديانات الأنبياء من بني إسرائيل لما فيها من إباحة الطلاق وأن للرجل أن يتزوج ما أطاق المؤونة.

فقيل لشاؤول: أنت من أمة هذا سبيلها، فقال: لا، وما يحل للرجل أكثر من إمرأة واحدة علي أحكام الروم، فنفق علي النساء بهذا. وقرب من إمرأة الملك فخاطبت الملك في غزو بني إسرائيل، وذكرت له ما يقول شاؤول، وسألته أن يسمع منه ففعل، وتقرب إليهم بأن تسمي بولص وهو من أسماء الروم.

والروم تكره الختان شديداً في الرجال والنساء، وتبغض الأمم الذي تفعله. فقالوا لبولص في ذلك، فقال: نعم، هو ما ترون، وما يجب عليكم ختان، وإنما يجب علي بني إسرائيل فإنها أمة قلفتها في قلوبها. والروم تأكل الخنزير، فقال: ما هو حرام وما يحرم علي الإنسان شئ يدخل جوفه، وإنما يحرم عليه الكذب الذي يخرج منه، وبنو إسرائيل لاتأكل ذبائح الوثنيين ومن ليس من أهل الكتاب والروم ليس كذلك، فصوّبهم بولص في هذا ونفق عندهم بكل شئ وما خالفهم في شئ.

وكانت ديانات الروم إذ ذاك منتشرة أكثرهم يعظم الكواكب ويعتقد فيها أنها تحيي وتميت وتنفع وتضر ولهم عندها هياكل وقرابين، ومنهم من كان علي دين اليونانيين من أن هذه الكواكب حية ناطقة رازقة وهي الأرباب، ويعتقدون صحة السحر، بالجملة إن دياناتهم كلها باطلة ضعيفة فاسدة. وكان بولص يذكر لهم فضل المسيح وزهده وأنه كان مجاب الدعوة وكان يحيي

بولص يذكر لهم فضل المسيح وزهده وأنه كان مجاب الدعوة وكان يحيي الموتى، فكانوا يجتمعون إليه ويستمعون منه، وكان محتالاً لا خبيئاً، وكان الروم تصلي إلي مشرق الشمس ولا تري وجوب الوضوء ولا غسل الجنابة ولا الحائض ولا التوقي من البول والغائط والدم ولا تراه فحشاً، وأن الروم تزوج الوثنيين وسائر الأمم وبنو إسرائيل لا تفعل ذلك، فقالت الروم لبولص في ذلك، فقال: تزوج المؤمنه بالكافر فإنها تطهره ولا ينجسها والولد بينهما طاهر. وقال: هذا إنما تحرمه التوراة، والتوراة شر كلها وإذا وضع عن الناس شرائع التوراة فقد كمل برّ الله وتم فضله. فاختلع بولص من ديانات المسيح وصار إلي ديانات الروم. فإذا تبينت الأمر وجدت النصاري تروموا ورجعوا إلي ديانات الروم ولم تجد الروم تنصروا.

ثم قبل الملك سعايات بولص باليهود وأخذ برأيه فيهم. فصار إليهم وقتل منهم القتل العظيم وأخذ أموالهم واستصفاهم وعاد من عندهم بالرغائب، فقامت سوق بولص فيهم وإزدادوا له حباً، وهذا الملك الذي غزا بني إسرائيل يقال له ططُس. وقد كان للروم ملك يقال له بيلاطس خرج إلي الشام بعد المسيح عليه السلام وبعد أصحابه بالمدد الطويلة، وكانت له إمرأة ببلاد الروم فماتت، فأراد أن يتزوج إمرأة مكانها، ومن عادة الروم أن يعترض الرجل المرأة إذا أراد التزويج ويقلبها ويستقصي تفتيشها. فإن صلحت له تزوجها، وإن لم تصلح تركها، فوصف لبيلاطس إمرأة بحران يقال لها هيلانة[1] تكون في فندق بحرّان -والفندق هو الخان- فأشخصها وقلبها وارتضاها وتزوجها -وكانت نصرانية- فحظيت عنده، وسألته إعزاز النصاري والإحسان إليهم، فقال لها: إن اليهود يزعمون أن أصحابك هؤلاء أصحاب حيل وطلاب دنيا ورئاسة، فقالت: كذبوا، وإنما أجيئك بهم لتراهم، فأتته بجماعة من الرهبان وقالت له: أنظر إليهم وإلي مسكنتهم وضعفهم لتعلم كذب اليهود عليهم. فرحمهم ورقّ لهم وظن الجميل بهم، فأعزهم وصانهم ومكّن لهم في ممالكه بالشام وبلاد

(١) في الأصل: هيلانية.

الملك أولاد من المرأة التي كانت قبل هيلانة، وولد له من هيلانة هذه إبن يقال له قسطنطينوس. وقد كان أمر بولص عظم ببلاد الروم مع العامة والغوغاء واستهواهم بما يجري مجري الرقي والطب والشعبذة والسحر، والروم الأرمن تصدق بهذا كله وهي أمة مفرطة الجهل بعيدة مما يستدرك بالفكر والنظر، يغلب عليها الفدامة والبلادة سيما في العامة فهي لا تعرف إلا المهن والصنائع، وإن كانت ملوكها تتقدم في ظاهر الحياة الدنيا ء تدبير الملك. ففطن بعض ملوكهم لبولص وتصفح أحواله وحصّله وعلم أنه محتال ممخرق طالب دنيا ورئاسة، فأحضره وسأله عن الختان فذمه وذم أهله ومن يفعله فسأله عن المسيح هل اختتن؟ وهل كان مختوناً؟ وهل كان أصحابه من الحواريين كذلك؟؟ قال: نعم ثم كشف عنه فإذا هو مختون، ووجده قد ساعد الروم في دياناتها وهي خلاف ديانات المسيح وأصحابه وأنها كفر وضلال عند المسيح وأصحابه، وقد كان أصحاب بولص في رجله داء الفيل وهو يدعي أنه يطبّ ويبرئ فأمر الملك به فصفع وحلقت لحيته وصلب. فقال لهم: لا تصلبوني طولاً كما صلب ربنا المسيح، ولكن أصلبوني عرضاً. والملك الذي صنع هذا ببولص يقال له بيرن، ففترت النصرانية ببلاد الروم وانكسروا. وملك أولاد بيلاطس بعده، وانتهي الملك إلي ابنه قسطنطينوس، وكان ظاهره علي ديانات الروم غير أن والدته هيلانه هذه قد غذته بحب الصليب. وعودته عادة النصاري وما يقولونه في المسيح، وظهر في جسمه برص وكانت الروم لا تملّك عليها من به برص، بل كان محرماً عندها تمليك البرص. فغمّه ذلك وأهمه وكتمه وانطوي علي قمع الروم وصرفها عن هذا الرأي في كراهة تمليك البرص.

وكانت تغزوهم أمم فاتفق غزو السرجان والبربر إياهم فعبأ عساكره علي هياكل الكواكب، وقصد إلي مشيخة الروم والراسخين في ديانات الروم وانفذهم إلي العدو، ولم يستظهر لهم علي عدوهم بالمكائد والجواسيس كما يفعل الملوك ومن يدبر العساكر فتم عليهم ما يكرهون من القتل وانهزام من بقي فكان يظهر الحزن والكآبة ويقول: قد استظهرنا وعبّأنا على هياكل

الكواكب التي تعظمها وقد عظمتها آباؤنا قبلنا، وقربنا لها القرابين، وما نراها تنفعنا ولا تغني عنا، وما زال يدبرهم ويقول هذا القول، وأنه ما ينبغي أن يعبد أحد ما لا ينفعه، وهذا وقت الحاجة وأوان الشدة فما تدفع هذه الكواكب عنا، فينبغي أن يستبصر الإنسان ويعبد ما ينفعه ويدفع عنه. ثم قال: ها هنا إمرأة رأت في منامها قائلاً يقول لها استنصروا بهذا، وأخرج إليهم صليباً. واتفق موت أمير الجند الذي غزاهم فانصرفوا عنهم، فقال هو ومن كان علي رأيه وهواه هذا ببركة الصليب. وكانت عادة الروم أن تجعل علي راياتها الأهلة وما هو علي صورة الهلال تبركاً بالقمر والنجوم ولأن القمر أخف الكواكب سيراً، فحطوها وجعلوا مكانها الصلبان فهم علي هذا إلي هذه الغاية.

ثم ابتدأ في التدبير في نقل الروم عن تعظيم الكواكب إلي تعظيم الصلبان، وكان الفلاسفة في بلدهم كثيرين، وكانوا يعظمون الكواكب، ويدعون أنها حية ناطقة، ويستطيلون علي الناس، ويدلون علي الملوك، ويدعون أنهم أخص الخاصة، ولا يتكسبون، ويعتادون البطالة، ويعولون عل أموال الناس، ويفسدون الأحداث ومن يصغي إليهم من ملك أو سوقه، ويدعون العزائم والطلسمات وأنهم ينفعون بها ويضرون، وأنهم يدركون علم المغيبات بصنعة النجوم، ويهولون بالهندسة والأشكال.

وكان قسطنطينوس هذا خبيثاً مفكراً صبوراً متصفحاً أمر هؤلاء الفلاسفة وما يدعونه في النجوم والطلسمات فوجده باطلاً كله، وجد القوم محتالين ممهرقين ومفسدين، فابتدأ في قتلهم علي طبقاتهم، وفي إحراق كتبهم وإبطال هياكلهم. فمكث علي ذلك حتي خلت أبنيته منهم، وكانت مدينة الفلاسفة فما بقي منها إلا حرّاث ودبّاغ وصبّاغ، وجعل الهياكل التي كانت للكواكب بيعاً، وأسكنها الرهبان وقال: هؤلاء المساكين أرجي من أولئك الجهال المخرقين الكذابين، وسلط الرهبان والعامة عليهم في كل مكان، لا يظهرون بكتاب طب ولا هندسة إلا أحرق وبادر علي من كان علي رأي الفلاسفة فتبرأ منهم، وأعان عليهم، وانبسطت أمه هيلانة فى ذلك، وبسطت الرهبان

والنصاري واستعدتهم من كل مكان فجعلتهم أصحاب أخبار لابنها وأعواناً، واستظهرت بهم، وأظهر هو تعظيم المسيح والصليب، وأقام ديانات الروم علي حالها كما كانت من الصلاة إلي المشرق وغيرها ما تقدم ذكره، فما أزال إلا عبادة الكواكب وما زاد إلا تعظيم المسيح والقول بربوبيته، وتعظيم الصليب. ولم يكن هذا بالبعيد عن الروم لأن من اعتقد في الكواكب وهي جماد موات أنها أرباب وتنفع وتضر لم يبعد عنهم أن يقولوا في إنسان حي عاقل مميز قد قيل لهم أنه كان يحيي الموتي، وأنه إله، وأنه وأبوه وزوجته خلقوا الكواكب، وكان هذا سهلاً علي أهل المغرب، ألا تري أن القبط ومن بمصر كانوا يعتقدون إلهية فرعون وأنه لا إله لهم غيره. وسار قسطنطينوس هذا إلي الجزيرة فقصد حرّان وأعمالها وكانوا في تعظيم الكواكب أشد مما كان بأثينية وبلاد الروم، فوضع فيهم السيف حتي أبادهم، وهرب من هرب منهم في الجبال فطلبهم بنفسه.

وكانوا يعيبون البرص فكان له فيهم فضل حرص، فقال له قواده: لا تبعث في طلبهم فإن الثلج الذي في هذه الجبال سيهلكهم، فإن بقيت منهم بقية جعلناهم حجامين للروم وجميع النصاري وأصحاب الصوامع والرهبان ليعرف منهم حقيقة النصرانية وما ينبغي أن يقرر مما يؤخذ الناس به فلا يتجاوزونهم، وأن من تجاوزه قتل. فاجتمع عنده نحو ألفين من رؤسائهم وقرر أشياء من تسبيحة الإيمان، وكان فيهم من يخالف أولئك ويقول: كلمة الله مخلوقة وأن المسيح كلمة الله وكان هناك إيرلس ومقدنيوس، وأونامس، وأولوفريانوس وأصحابهم، ممن يقول: الكلمة مخلوقة وكلام الله وقوله خلق من خلقه، فشغبوا عليهم ووقف الأمر وبطل ذلك التقرير.

ثم اجتمع بعد ذلك ثلثمائة وثمانية عشر رجلاً بنيقية من بلاد الروم وعملوا تسبيحة إيمانهم التي قد ذكرت، فأتوا بها قسطنطينوس فأخذها وعمل عليها وأخذ الناس بها فمن لم يقبلها قتله. فاحتاج أولئك أن يظهروا قبولها خوف السيف، وأبطل ما سواها عن التقرير، وحصل من كان علي دين

المسيح في كل مكروه، وأخذوا بتعظيم الصليب وأكل الخنزير وديانات الروم، وكان من لا يأكله يقتل.

وكان في الصابئين من أهل حران من لا يأكل الباقلاء ويزعم أنه عدو للفلك لأنه مكعب والفلك كروي، فكان يطبخ الباقلاء في أبواب البيع ويجمع الناس إليها ويقال لهم: اخرجوا ولا يبقي منكم أحد إلا آكل الباقلاء ومن لم يأكله قتل ورمي برأسه، وهناك سيافة قد جردوا سيوفهم فمن لم يأكله قتلوه.

ولم يزل قسطنطينوس في الملك خمسين سنة مشغولاً بقتل من لم يعظم الصليب ولم يقل بربوبية المسيح حتي تأكد ذلك وتمكن، وأوصي الملوك بعده بذلك وأكد عليهم وعهد فيه اليهم وقال: هو أولي من تعظيم الكواكب وآراء الفلاسفة، وأوثق هذا العهد علي أولاده وقواده وأوليائه وجعل الملك في أولاده. والروم يصفونه بالحزم والشهامة وأنه فيهم كأردشير بن بابل ملك فارس في الفرس.

وقام أولاده بعده في الملك فأكدوا عهوده وقرروا في كل حين شيئاً بعد شئ في النصرانية إلي أن جاء ملك منهم فرأي أن يجعل يوم الأحد عيداً لهم يجتمعون فيه كما لليهود يوم السبت، وكان هذا بعد قسطنطينوس بالدهر الطويل. وعملوا لذلك سنهودس، وكان للروم واليونان عيداً يسمونه ميلاد الزمان وهو عند رجوع الشمس في كانون، فيجعلوه ميلاد المسيح وزادوا ونقصوا،وهو عيد لهم عظيم وهو الذي يقيمه النصاري ويسمونه الميلاد وليلة الميلاد وهذا سببه وأصله، وما كانت النصاري فى زمن المسيح وأصحابه من بعده يعرفون هذا العيد ولا يقيمونه.

وكان للروم والصابئين أيام يصومونها تجري مجري التقرب إلي الكواكب يمسكون فيها عن أكل اللحم، فلما صاروا إلي القول بإلهية المسيح أقاموها ثم زادوا فيها من أشياء ونقصوا، وهم اليوم يصومونها خمسين يوماً إلي زوال الشمس ثم يفطرون في بعض الأيام، هكذا يصومون ببلاد الروم.

والروم هم الأصل في هذه الطوائف الثلاثة من النصاري، ثم تفرعت منهم اليعقوبية أصحاب يعقوب، ثم من بعد اليعقوبية النسطورية وهم أصحاب نسطورس وهم يختلفون في الصيام، فإن هؤلاء الذين بالعراق لا يصومون في كل يوم نصفه كما تصوم الروم، ولهم أيام، أعني الذين ببلاد الإسلام، ينظرون فيها بعد صلاة العصر يحتسون الخمر في البيعة وهو القربان عندهم، وقد قال بولص: إن دم هذا الشراب هو دم الرب وهذا البرشان هو لحم الرب فمن ارتاب في أن هذا لحم الرب ودمه فلا يأخذه ولا يذقه وأن ذلك لا يحل له. والبرشان[1] هي أقراص تخبز وتحمل إلي البيعة وتثرد في الخمر وتؤكل تقرباً.

والمسيح عليه السلام ما صام هو وأصحابه إلي الصوم الذي صامه بنو إسرائيل.

قالت هذه الطوائف من النصاري: إن كان المسيح ما صام هذه الأيام الخمسين فقد صام حين أسره الشيطان أربعين يوماً بلياليها فجعلناها نحن خمسين.

قلنا: هبنا صدقناكم في ذلك فمن أين وجب عليكم مثل ذلك وأنتم تقولون إن موسي صام ثمانين يوماً بلياليه. فلم يطعم فيها شيئاً البتة وكان ذلك في دفعتين، وزعمتم أن إيليا[2] صام أربعين يوماً بلياليها فما وجب علي قوم موسي الصيام الذي صامه موسي ولا عليكم صيام ذلك.

وبعد، فقد عاد المسيح إليكم حين أطلقه الشيطان وبقي معكم فما صام صومكم هذا ولا أمركم به ولا صام هو وأصحابه إلا صوم بني إسرائيل، فعطلتم الصوم الذي تعلمونه يقيناً وصمتم صوماً ما صامه ولا أمركم به.

---

(١) أخذت من هامش المخطوط.

(٢) في المخطوط: اليا.

وفي إنجيلهم أن الشيطان أسر المسيح وحصره أربعين يوماً ليمتحنه، وأن المسيح أمسك عن الأكل والشرب خوفاً من أن تتم عليه حيلة الشيطان، وأنه قال له وهو معه وفي يده: إن كنت إبن الله فقل لهذه الصخور تصير خبزاً، فقال له المسيح مجيباً: مكتوب[١] أن حياة الإنسان لا تكون بالخبز[٢] بل بكل كلمة تخرج من الله.

ثم ساقه الشيطان إلي مدينة بيت المقدس فأقامه علي قرنة الهيكل وقال له: إن كنت ابن اله فارم نفسك من ها هنا فإنه مكتوب أن الملائكة توكل بك فلا تعثر رجلك بالحجر، قال المسيح: ومكتوب لا تجرب الله إلهك.

ثم ساقه إلي جبل عال فأراه جميع ممالك الدنيا وزخرفتها وقال له: إن خررت علي وجهك لي ساجداً جعلت هذه الدنياً كلها لك كما جعلتها لمن قبلك، فقال له المسيح: أغرب أيها الشيطان فإنه مكتوب أسجد للرب إلهك[٣].

ثم بعث الله ملكاً اقتلع الشيطان من مكانه ورماه إلي البحر وأطلق السبيل للمسيح[٤].

فهذا من الجهل الذي خبرتك أنه مكتوب في أناجيلهم وهم زعموا حجتهم في صومهم. فهل سمعت بشيطان يأسر إلهه ويحصره وينقله من مكان إلي مكان ويطمع في إلهه أن يستعبده، والشيطان لا يقدر أن يأخذ حمار اليهودي.

وعند النصاري أنه قد أخذ ربه إلي أن جاء الملك فخلصه وفك أسره. وعند النصاري أن المسيح لما ظهر ربط الشيطان عن الخلق وأطفأ ثائرته وأزال أذاه وشرّه.

---

(١) في المخطوط (أن مكتوب) وإن زائدة.

(٢) النص الإنجيلي: (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان) - متى الإصحاح ٤.

(٣) النص الإنجيلي: (للرب الهلك تسجد وإياه وحده تعبد) متى / ٤.

(٤) راجع تجربة الشيطان للمسيح فى إنجيل متى، الإصحاح الرابع.

وها هنا يقولون أشد ما كان قوة عليه وتسلطاً عليه وهو ربه وإلهه، ففكر وأعجب.

وكان للروم والصابئين دخن وبخورات فى الهياكل للكواكب والأصنام، وهى قائمة عند النصارى ما عطلوها، وهى فى البيع يسمونها دخنة مريم وبخور مريم، وما عرفته مريم ولا المسيح ساعة قط ولا أصحابه، ولا استعملوا ذلك، فجعلوا هذا بخور مريم كما جعلوا صومهم للمسيح، وكما جعلوا الخمر والقربان لحمه ودمه.

وكانت الروم مع عبادتها الكواكب تعظم الأصنام وتصورها فى الهياكل، فبقيت على ذلك بعد إجابتها إلى تعظيم الصليب، وما كان منهم فى ذلك قصور، والمسيح وأمه وأصحابه عوضاً من تلك الأصنام. ثم تركوها شيئاً شيئاً على الأيام والدهور.

وهم كانوا يستبيحون الزنا ولا يمتنعون عنه فبقوا على ذلك بعد تعظيم المسيح فهو مبثوث بينهم وفى مدنهم وأسواقهم منتشر، يقولون: المرأة إذا لم يكن لها زوج ولم تختر الزواج وآثرت الزنى فهى أملك بنفسها ولها أن تفعل ذلك، والملك يسعر ذلك، ويقيم له الحكام والولاة فلكل إنزالة تكون من الرجل فلس واحد، وكل أربعة افلس قيمتها دانق فضة.

وللقحاب فى بلدانهم أسواق كثيرة، ولهن دكاكين، تفتح حانوتها وتتزين وتجلس على بابه بارزة مكشوفة. وليس عندهم فى كشف السوءة والعورة من الرجال والنساء تحريم ولا خطر، بل المرأة الحرة منهم تزف إلى زوجها راكبة فتمر بالناس فى الأسواق مكشوفة الوجه والرأس، وقد أرسلت ضفائرها وتجدلت بها، وأبدت محاسنها كلها لينظر كل أحد إليها، ويقال إن الغالب على ذوات الأزواج العفاف، فأما من ليست بزوج فحالها كما وصفنا، وربما كانت تزنى فى بيت أبويها، ومن جاء من هؤلاء الزوانى بولد حملته إلى البيعة ان شاءت وسلمته إلى البطرك والمطران والقس، وقالت: قد وهبت هذا للمسيح ليكون خادماً له وقيماً فى البيعة.

فيجزونها خيراً ويقولون لها: قديسة طاهرة مباركة، هنيئاً لك رضى المسيح وثوابه ويدعو الناس لها ويهنئوها بالثواب، وهناك من المرضعات والكاملات لمثل هؤلاء أولاد الزنا جماعة.

وهم يأبون الختان، ويخصون الأطفال، وإذا سبوا المسلمين نظروا إلى أطفالهم فخصوا منهم القطعان الكبيرة وأنقوهم، فيموت منهم الكثير، وهم يدعون الرأفة والرحمة وكانوا فى أول الإسلام يحترزون على الأسارى لقوة الإسلام وضعفهم لفادوا بهم.

فلما ساءت سيرة ملوك الإسلام وقلت مبالاتهم به، وصار يغزوهم مثل على بن حمدان سيف الدولة[١]، ومن بمصر أعداء المسلمين يقبضون أوقاف الثغور، هان المسلمون على الروم وهم يقولون: دولة الإسلام قد زالت منذ نحو ثمانين سنة.

وأنت اليوم فى نحو سنة خمس وثمانين وثلثمائة.

ثم عدت إلى ذكر سيرة النصارى، وليس الخصاء من شريعة التوراة ولا إباحة الزنا لتعلم أن الروم ما تنصرت ولا أجابت المسيح، بل النصارى ترومت وارتدت عن دين المسيح وعطلت أصوله وفروعه وصارت إلى ديانات أعدائه وهو ما عليه هذه الطوائف الثلاث من النصارى.

فعلوا هذا طلباً للرئاسة وعاجل الدنيا كما قد وجدته فى كتبهم وفى إقرارهم مما تقدم ذكره لك.

وهذا التثليث الذى للنصارى قد كانت فلاسفة الروم تنحو نحوه من أن العقل والعاقل والمعقول تصير شيئاً واحداً، ويقولون: هو من المثلث، وهو من قول[٢] فيلسوف قديم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة[٣]» وقال كعب بن

---

(١) يقصد سيف الدولة الحمدانى. (٢) كلمة قول ليست فى الأصل

(٢) من حديث أنس رضي الله عنه.. انظر تيسير الوصول ١١٠ .

مالك الأنصارى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما ذئبان جائعان أرسلا فى زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه» وقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان ضاريان فى حظيرة وثيقة يأكلان ويفريان بأسرع هلاكاً من حب الشرف والمال فى دين المرء المسلم[1]».

ومثل صنيع بولص مع الروم فى مساعدتهم على دينهم ومفارقة دين المسيح صنع مانى القس، وهو رئيس المنانية، وهذا كان بعد بولص بالدهر الطويل، وكانت له الرئاسة، وصار مطراناً على النصارى بالعراق فى مملكة الفرس بعد أن كان قسّاً، واختلط بالفرس، ومدح الأنوار وذم الظلام على ما يذهب إليه المجوس، ومدح زرادشت نبىّ المجوس، وقال: النور اختاره وأرسله إلى المشرق، وأرسل المسيح إلى المغرب. وذم إبراهيم وإسماعيل والأنبياء الذين صدقهم المسيح، وكانت الفرس تبرأ منهم، فساعدهم مانى وتقرب إليهم بذمهم، وقال: الشيطان أرسلهم، وكان يكتب: من مانى عبد اليسوع كما كان بولص يكتب، وكان يتشبه به ويقفو أثره.

وأخذ الأبستاق وهو كتاب زرادشت نبى المجوس،وهو كتاب ليس بلغة الفرس ولا بلغة من اللغات البتة، ولا يدرى أحد ما هو وهو الزمرمة، وإنما يحكون لفظه وإن كانوا لا يدرون ما هو. فادعى مانى القس أنه قد وقف عليه وعلم ما هو، وادعى مانى أنه رسول النور فوضع لهم جهالات، وقال: هذا تفسير الأبستاق، واستهووا العامة وقامت سوقه فيهم وأطاعوه، وادعوا له بالمعجزات والآيات فأخذه بعض ملوك الفرس ليمتحنه، وفتش عن أحواله، فإذا هو كذاب وممرق طالب رئاسة يتقرب إلى الفرس والمجوس بما يهوونه لينفق عليهم مما ليس هو من دين المسيح، فقتله كما فعل ذلك الملك ببولص، وبقى أصحاب مانى بعده يدعون نبوته، ويقررون رسائله وإنجيله ولعل رسائله تزيد على السليحين ورسائل بولص، وكثير من هذه الطوائف الثلاث يعتقد

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

مذهبه وما يكاد يظهره خوفاً من النصارى ومن المسلمين ممن منهم فى بلاد الإسلام، لأنه لا ذمة للمنانية عند المسلمين[١].

ومن سيرتهم أن النساء الديرانيات العابدات ومن انقطع إلى البيع والعبادة، يطفن على العزّاب والرهبان، ويخرجن إلى الحصون التى فيها الرجال العزاب يبيحون لهن أنفسهن ابتغاء وجه الله والدار الآخرة والرحمة بالعزاب، ومن فعل هذا منهن كان عندهن مشكوراً محموداً على هذا الفعل ويدعا له، ويقال لها: لا ينسى لك المسيح هذه الرأفة والرحمة.

وعندهم أنه لايحل للرجل أكثر من إمرأة واحدة، ولا يحل له أن يتسرى ولا يطأ بملك اليمين، فإن صادق إمرأة أو خادمة لم يكن بذلك بأس ولا عار، وهذا مشهور ببلاد الروم كشهرة الزنى.

ولقد تحدث مصبح الطائى، وأبو عبد الله الحسين بن الصقر، وعبد الرحمن صاحب ابن الزيات وغيرهم من الغزاة، وممن أقام بالقسطنطينية السنين الكثيرة فى الأسر وغير الأسر، فإنهم تطول الشقاء وعدم من بعثت المسلمين فى فداء أو غزو، أظهروا النصرانية تقية، وانتشروا بينهم، واختلطوا بهم. فحدث من حدث منهم بعض من تنصر من الشجعان بعد الشدة وطول الشقاء، قال: فأعطانى الملك وأجزل وقال لخدمه وأعوانه: انظروا لهؤلاء المتنصرة نساء من ذوى اليسار يتزوجون بهن لتحسن أحوالهم.

فقال رجل منهم: فلانة قد مات أبوها، ولها ضيعة ومواش وأموال كثيرة نزوجها بهذا، وأشار إلىّ، فزوجنى بها، فإذا هناك جمال ومال كثير فأقمت معها مسروراً ثم ضرب الملك بعثاً على جماعة "نا منهم ليخرج إلى مكان فيه زرع مستحصد يخاف عليه العدو أن يمنعهم منه، ويكون مقامنا أربعين يوماً، ثم يأتى بعدنا عسكر يقوم مقامنا ونرجع إلى "هلنا، فخرجنا، وأقمنا هذه المدة، ثم جاء العسكر فسألت بعض الواردين عن أهلى ومنزلى، فقال لى: قد

---

(٣) في متن المخطوط (المنانية) وكتب في الهامش «لاذمة للمنانية عند المسلمين».

تزوجت إمرأتك بعد خروجك، فاستثبت ذلك جيداً ممن ورد فأخبرت بهذا، فأخذنى ما أقامنى وأقعدنى؛ فلما رجعت إلى البلد عدلت عن منزلى ونزلت سوق الدواب، فسأل أهلى عن الواردين من أهل عسكرنا فأخبروهم بسلامتى وورودى، فتعرفوا مكانى فإذا أم امرأتى قد جاءتنى ومعها موكب عظيم من نساء الجيران عليهم البزة الفاخرة والحلى، فقالت لى حماتى: ما لك عدلت عن منزلك وأهلك ونزلت ها هنا ونحن نتعرف أخبارك ونشتاقك، فقلت: وما أصنع بإمرأة غبت عنها فتزوجت بعدى، أنا علىّ أن أدخل على الملك وأكسر بحضرته سيفى وأقطع زنارى وأعرفه ما جرى علىّ، فقالت لى اخطأ من قال هذا، ما تزوجت إمرأتك وكيف تتزوج رومية بزوجين، إنما ذلك صديقها، لما غبت جاء ونزل عندها. فلما علمنا بقدومك حمل فراشه وانصرف، واستشهدت بأولئك النسوة والجيران، فشهدن أنه ليس بزوج وإنما هو صديقها.

وإذا ليس عندهم أن بهذا بأساً ولا عاراً، ثم أقبلت حماتى تقول: لى قم إلى بيتك فانظر إلى المكنوز والنبيذ وما خلفته تجده لم ينقص بل هو محفوظ موفر، وإذا هى تبشرنى فيما إذا[1] أن صديق إمرأتى قد كفانى مؤنتها فى غيبتى وتسرنى بهذا أو تمن به علىّ، وقال أولئك النساء وهن حليلات وأزواج كبار الناس، قم عافاك الله إلى بيتك، فما ها هنا شئ يكره ولا ينكر.

فقمت وحملت أثقالى وصرت إلى منزلى وأنا مقيم على إمرأتى، وما أجد شيئاً، وزالت الغيرة. ثم قال يا أبا الفتح: ما يدخل أحد بلاد الروم إلا وقد طابت نفسه باتخاذ إمرأته الأصدقاء، وزال عما كان عليه وأمحت الغيرة من قلبه، وزال عن الحمية وما كان عليه وهو مسلم.

فإن قالوا: مبتدع فى دين النصرانية كما مثل ذلك مبتدع فى الإسلام، قيل له: إن الروم قد كانت قبل التنصر تأكل الخنزير، وتستعمل الخصاء، وتغزو الأمم، وتسبى وتقتل وتسترق، وترى فى الزنا ما قد ذكرنا، وتسير السيرة

---

(١) هكذا في الأصل.

التى وصفنا. ولما تنصرت دامت على تلك السيرة فما زايلتها ولا زالت عنها، فمتى كان هذا الابتداع. ولا فرق بين من ادّعى هذا، وادعى أن الروم كانت على خلافه ورجعت إليه لما تنصرت، ومن انتهى إلى هذا فقد جحد وكابر وليس مع المكابرة مناظرة.

ومما يحتج به النصارى وهو أكبر شبههم فى دينهم، وأجل ما يلجئون إليه، وهو عمدة الخواص والعوام منهم، أن يقولوا: النصرانية دين صعب ضيق، قد أجابت إليه الأمم الكبيرة والملوك بلا إكراه ولا سيف ولا قهر ولا غلبة، وما كانوا ليجيبوا إلى ذلك إلا بالآيات والمعجزات التى ظهرت على أيدى الدعاة إليها من الرهبان والرواهب.

قيل له: قد بيّنا وعرف تبديل النصارى لدين المسيح وميلهم إلى ملوك الروم، وقد شرحنا ذلك وعرفناه، فلا نجد إلا النصارى ترومت ولم تتنصر الروم. وأصل طوائفكم هم الروم، فهذا شاف كاف. ولو لم نعلم هذا وكيف الحيلة فيه من أوله إلى آخره لما كان يشكل علينا أيضاً بطلان هذا الاحتجاج وفساده، وأن أهل هذا الدين لا يظهر الله على يديهم معجزة، ولا ينقض على يد أحد منهم عادة؛ كيف والمعجزات لا تكون إلا للأنبياء عليهم السلام وفى زمانهم.

ثم يقال للنصارى: إنكم ادعيتم الصحة لدينكم بالكثرة والملوك الذين تدينوا بدينكم، والكثرة لا تكون دلالة فى صحة الديانة، وإنما يدل على صحة الديانة الحجة والبرهان لا غير ذلك، سواء كان أهل ذلك الدين قليلاً أو كثيراً. وقد كان المسيح ومن اتبعه قليلاً والروم واليهود هم الأكثر وأصحاب الملك، فيدل هذا على قياسكم أنه لم يكن له معجزة.

ثم يقال لهم: انتم تدعون المعجزات والآيات لرهبانكم ورواهبكم ورؤسائكم فى كل زمان وأنها لا تنقطع ولا ترتفع، وها أنتم قد أجبتم إلى هذه الديانة ولم تروا معجزة ولا آية، فكذا من قبلكم قد أجاب هذه الصفة وفى هذا أتم كفاية لمن أراد الحق.

وهم فى كل حين يجتمعون إذا أرادوا أمر تحليل شئ أو تحريمه، ويكون لهم فيه سنهودس، وتفسيره الاجتماع للتقرير، فيفعلون ذلك، فإذا تقادم عهده، قالوا: هذا ما حرمته تلك الجماعة إلا بظهور آية أو معجزة، ألا ترى أن الجثلقة والمطرنة قد كانت جائزة عندهم فيمن له الأهل والولد، فصار الجثالقة والرؤساء يجعلون الرئاسة فى أولادهم ويوصون بها فى ذريتهم، فاجتمع النصارى وعقدوا تحريمها فيمن له أهل وولد وعرف التزويج، فصار ذلك ديناً لهم فاجتمعوا عليه وعملوا به من غير آية ولا معجزة.

وقد كان تزويج الأختين بالأخوين مباحاً عندهم، فجرى من أختين كانتا عند أخوين عداوة أدت إلى معاداة بين الأخوين، فاجتمعوا وحرموا ذلك، وصار لهم ديناً يعملون به وأن لم يروا فيه آية ولا معجزة. وقد كان تزويج بنت الأخ عندهم مباحاً فجرى فيه نسب استنصر به بعضهم، فاجتمعوا وحرموا ذلك، فصار لهم ديناً بغير آية ولا معجزة.

وهذا منه ما فعلوه قريباً وفى الإسلام فى دولة بنى العباس. ومثل ما فعل مطران سمرقند فإنه حرم على أهلها الفراخ وزعم أن روح القدس تنزل فى هذه الحمامة، فقبلوا ذلك منه وصيروه ديناً.

وإذا اختلطت بهم وفتشتهم ودخلت بينهم ولابست الجثالقة والرهبان وجدت هناك من الكذب والجهل والحرص على الدنيا وطلب الرئاسة والجمع والمنع أموراً كثيرة، فإن الواحد منهم يترهب وما معه شئ ويصير كلا على غيره. وما تمر الأيام حتى صار ذا مال كثير حتى ربما مات عن عشرات الوف.

ثم يقال لهم: انتم طوائف كثيرة وبينكم خلاف كبير فى أصل الديانة، تضلل فيه الملكية اليعقوبية، وكذا النسطورية لا ترضى مذاهب الملكية واليعقوبية، وكل هذه الطوائف تدعى لرهبانها ورواهبها ورؤسائها المعجزات والآيات، وكذا المانية، فعلى قياسهم الحق فى طائفة واحدة والباقية كذبت فما تدعيه.

وقد قال بعض الحكماء ها هنا ديانات ومقالات تعرف كذب أهلها بأدنى تتأمل:

منها: النصرانية، فإنهم يدعون الآيات لكبرائهم، وإنها لا تنقطع فى زمان من الأزمنة، وأن الذين أجابوا إلى النصرانية إنما أجابوا بالمعجزات، فيقال لهم: أنتم أجبتم إليها ولم تروا آية ولا معجزة.

ومنها أصحاب النجوم، فإنهم يمخرقون ويدعون بالإصابات لأوائلهم، فيقولون: حكم جانان لكسرى بالدول وانتقالها، وللملوك فى مواليدها، فما أخطأ فى حرف واحد، وكذا كنكه منجم الهند لملوك الهند، وكذا ذوروثيوس لملوك الروم، وبطليموس لملوك القبط.

وربما عملوا بذلك كتباً، وقصدوا إلى دول وممالك قد كانت، ووجدت، وعرفت الحوادث فيها وأعمار ملوكها الخاصة والعامة، فيذكرون الجمل منها ولا يفصحون بأسماء ملوكها، لئلا يعرف فيه كذبهم. فيقرأ هذه الكتب والدفاتر الغر الغافل عن احتيال المحتالين أو تقرأ عليه، فيظن أن هذا قد ذكره المنجمون فى سالف العصر قبل أن يكون، فيعتقد فى أحكام النجوم الصدق، وأن أهلها قد تكلموا بعلم. فيقال لهم: إن الكواكب والسماء ما ارتفعت ولا زالت ولا انتفضت، وهى كما كانت، فهاتوا وأخبرونا عما سيكون، أو عما قد كان ووجد مما تشاهدونه بعيونكم، وتلمسونه بأيديكم.

فإنا نعمد إلى دفتر ضخم مكتوب فيه فنقول لحذاقكم: خذوا طوالعكم وأخبرونا كم ورقة هو، وكم سطر فى كل ورقة فإنا نجد كذبكم فيه عياناً وحساً، وما تحتاجون إلى الأخبار عن نجم يطلع بعد سنة أو عشرين سنة، وتخبرونا عن تلك الحوادث، فإنا قد قرينا الأمر عليكم لتعلموا أن هذه الدعاوى كذب ومخاريق وحيل على الناس، ولتعلموا بكذب أولكم وآخركم.

فإن قالوا: لم تقتصرون منا على العلم بورق هذا الدفتر دون الأسطر والحروف التى فيه؟ قلنا: إن مثل هذا وأكبر منه قد يصيب فيه الصبيان والجهال الذين يلعبون بالخاتم والزوج والفرد بالاتفاق، فهاتوا ما يتجاوز إصابات الصبيان والجهال والمجانين إن كنتم صادقين، وإن كان صنعتكم حقاً؛ وهذا ما لا سبيل لكم إليه، وفضيحتكم فيه كفضيحة النصارى.

فإن قالوا: قد يكون لنا إصابات فى مواليد ومسائل؟ قلنا: قد يكون ذلك فى قليل من كثير تخطئون فيه، وفى جمل دون تفصيل، والذى يأتى به الأنبياء فلا يخطئون فى شئ منه مع كثرته، والذى يتفق لكم من ذلك كما يتفق للعاب الذين ذكرنا، وكما يتفق لأصحاب الفأل ولمن يضرب الحصا والبصير بالنظر فى الكفّ ويزجر الطائر، وما يتفق لهؤلاء من الإصابة أكثر من الذى يتفق لكم، وهم فيه أسرع، وأحوالهم فيه أكشف، وكما يتفق لبعض من يلقى الثعلب من السعادة، ولمن يلقى البوم من المحنة، وكما يتفق فى رقى الهند والنصارى والمعزّمين من العافية والإفاقة، فيدعى أولئك أن هذا إنما كان عن رقاهم وعزائمهم، وأن ما هم عليه حقّ، وأنهم قد نطقوا بعلم.

ومنها أصحاب الطلسمات، فإنهم يمخرقون ويقولون: إن الإسكندر شكا إلى أرسطوطاليس بعد الماء عنه وعن عسكره عند لقاء العدو، فعمل له طلسماً سار الماء بمسيره ووقف بوقوفه، وأنه قال له وقد ورد على بحر إن تشاغل بعبوره أبطأ عليه وفاته إدراك عدوه، فقال له: أيما أحب إليك أيها الملك، أن أعمل طلسماً تسير بعسكرك على وجه الماء كما تسير على وجه الأرض، أو أجمع بين الشطين لتعبره، فقال: تجمع بين الشطين فإنه أقرب فى المسافة، فجمع له بين الشطين فعبر.

وأن غير واحد قد عمل طلسماً للقطعان من البقر والغنم وأمثالها من الحيوان، فتبعته وسارت بمسيره. وأنهم يعملون الطلسمات للبق والعقارب والجراد وغير ذلك، فيصرفونها عن بلد بلد، وأن من عرف صنعة النجوم تأتى له ذلك.

فقيل لهم: هذه كلها مخاريق، وإذا أردتم أن تعرفوا كذب أوائلكم فاعرفوه بكذبكم فى زمانكم، فإن الكواكب ما بقيت ولا زالت، فهاتوا شيئاً من هذا، وفى تعذره عليكم دلالة على كذبكم وكذب أوائلكم.

فإن قالوا: بلاد حمص لا يكون بها عقرب، وإن دخلت إليها عقرب ماتت وإنما هذا طلسم عمل لها، قلنا: قد بينا كذبكم حساً كما بينا كذب النصارى والمنجمين، فإن كانت حمص لا يعيش بها عقرب فإن هذا من فعل الله تبارك

وتعالى، قد يميت بعض الحيوان إذا صار فى بعض الأماكن لتدبير له عز وجل هو أعلم به، ولمصلحة فيه. ألا ترى أن بلاد الروم لا تكاد تبقى بها الجمال مع حرصهم فى بقائها، حتى قال من لا يعلم: إن هذا لشدة البرد، فقيل له: فبلاد الترك أشد برداً وبها الجمال، والأتراك بالرى إذا قطنوا بها فما يكادون يبقون بل يتماوتون، والأصفهانى إذا أراد السفر إلى الرى أوصى. وما هذا الطلسم، وأرض مصر وغيرها من مواضع شتى لا يكاد يكون به مطر. وما ذاك الطلسم، وأرض العراق مع كرمها وطيب مائها لا ينبت بها الفلفل، ولا الدار فلفل، ولا العود ولا الزنجبيل ولا الدارصينى، ولا الزعفران، ولا سنبل الطيب، ولا يكون فى أنهارهم العنبر.

أو ترى هذه الطلسمات وضعت بالعراق وإناث البغال لا تكاد تحمل بل لا تكاد تهيج. أفترى هذا الطلسم وأودية العراق لا يكون فيها التمساح، وهو بمصر كثير. أفترى هذا الطلسم وضع بالعراق لئلا يكون فيه هذا، أو وضع بمصر حتى لا يفارقها، وهذا التمساح فى نيل مصر، وهو فى بعض المواضع بها دون بعض، وبأرض الكوفة والبصرة وواسط وبغداد وسر من رأى ومصر والقيروان، وهذه كلها أمصار إسلامية، ووضعت فى الإسلام، وخطت فى الإسلام، فحدثت أمور كثيرة فى أحوال الحيوان أبدع مما يدعونه لحمص وغيرها بلا طلسم.

والمجوس تدعى أن لهم منظراً حياً باقياً مهدياً من ولد بشتاسف بن بهراسف يقال له أبشاوثن، وأنه فى حصن عظيم من خراسان والصين، ومعه كثير، كلهم ثقات أمناء أخيار، لا يكذبون ولا يعصون الله، ولا يقع منهم خطيئة صغيرة ولا كبيرة، وأن دعوتهم مجابة، ولهم دلالات وآيات ومعجزات، وأنهم صاروا إلى ذلك المكان عند زمن زرادشت الذى تدعى نبوته، وأنهم أنوار ساطعة، وأنهم من الجمال والحسن والنظارة على أمر عظيم، وأنهم لا يبكون ولا يهرمون ولا يموتون، وأن أبشاوثن لا يحتاج إلى أكل ولا إلى شرب، ولا يكون منه بول ولا غائط ولا شئ من الأذى.

هذا الذى أتيقنه مما قد ذكره ذرباذ بن أميذ الملوبذ فى وصفه

أبشاوثن، أنه لا يأكل ولا يشرب ولا يبول ولا يتغوط، فأما أصحابه فلست أتيقن أنه وصفهم بأنهم لا يأكلون ولا يشربون، ويغلب على ظنى أنه قد وصفهم بذلك، فأما العصمة وأن أصحابة بمثابته، فما أشك فيه.

فقيل للمجوس: إذا شئتم أن تعرفوا أول أمركم فاعتبروه بآخره تجدون بطلانه واضحاً بيناً، كما يجدونه النصارى والمنجمون[1] وأصحاب الطلسمات، فإنكم تدعون أن قوماً فى زماننا هذه صفاتهم وأحكامهم، وعليكم فى هذا فضل مزية فى الباطل، فإنكم أمم كبيرة قديمة تخبرون بكون هؤلاء فى الدنيا معنا وفى زماننا، وأنهم يخرجون مع أبشاوثن هذا فيكلمون الأرض كلها، ويعيدون المجوسية وديانات الفرس وملكها الذى أزاله الإسلام كما كانت.

فقد كان ينبغى إن كان هذا فى الدنيا ها هنا قوم يدعونه أن نعلمه بخبركم، وفى عدم العلم بذلك دليل على أنه أمر لا أصل له، وما فى الدنيا إنسان يدعى هذا، ولكنه شئ وضعه لكم الواحد والإثنان والنفر اليسير، فصدقتموه وأحسنتم الظن بهم، وانتشر فيكم، وهو كذب وأنتم لا تعلمون أنه كذب، كما أصاب النصارى وغيرهم ممن كانت هذه سبيله.

وكذا لمن ادعى أن معنا وفى زماننا إماماً معصوماً قد أقيم لنا وهو الحجة علينا وعلى أهل الأرض بأسرهم، قيل لهم: انتم أمم كثيرة عظيمة بالعراق وبالشام وبفارس وبمصر والمغرب والحجاز واليمن والبحرين وكور الأهواز وبالجبال والديلم وخراسان وكلكم أصحابه وينتظره ويدعو إليه. وتصنيف الكتب فى ذلك قد ملأت الدنيا، ونخصم فى ذلك، فلو كان فى الدنيا إنسان هذه سبيله لعلمنا ذلك بخبركم وبما نسمعه وإن لم نصدقه فيما ادعى، ولم نقبل قوله ولم نر شخصه، وإن لم نسمع كلامه ألا ترى أن نبينا محمداً[2] ﷺ لما ادعى أنه رسول الله إلى الخلق أجمعين وأنه الحجة عليهم علم ذلك من دعواه كل من بلغه خبره ممن صدقه أو كذبه، ومن رآه ومن لم

---

(١) في الأصل: المنجمين.

(٢) في الأصل: محمد.

يره، وكذا العلم بمسيلمة وما ادعاه وإن كذبه الناس كلهم. بل لو اخبر جماعة عن إمرأة من وراء حجاب بصلاح أو طلاح لعلمه الناس ذلك بخبرهم إذا كانوا عالمين بما أخبروا، فكيف وأنتم أمم كثيرة عظيمة قد[1] طبقت الأرض والبر والبحر والسهل والجبل، تعتقدون ذلك، وتخبرون به، وتدعون إليه، وتزعمون أنكم أصحاب هذا الرجل وأتباعه، فلا يزداد من تأمل ونظر واعتبر إلا علماً بأن ليس فى الدنيا انسان يدعى ذلك ولا يدعو إليه. فلو نظرتم وأنصفتم لعلمتم أن أول أمركم مثل آخره فى الباطل، وأن النبى ﷺ ما تدين بما تدعون ولا دعا إليه. لا هو ولا أحد من أصحابه.

فإن قيل: فلو قال لكم قائل وأنتم أيضاً أول أمركم مثل آخره، إذ ليس فى زمانكم من معه معجزة ولا آية، فأولكم هذا سبيله ما كان يكون جوابكم؟

قيل له: لا سؤال علينا فى هذا، لأنا نمنع أن يكون مع أحد بعد نبينا آية أو معجزة، وما ندعى أنه آية ومعجزة فهو ما علمه كل من سمع الأخبار، وهو هذا القرآن وما جاء مجيئ القرآن، ونقول: لا حجة على الخلق إلا رسول الله ﷺ وحده، فعرفت الفصل بيننا وبين من ذكرنا.

وجواب آخر، وهو أن كل من سمع أخبار النبى عليه السلام فمن صدقه أو كذبه يعلم باضطرار أنه كان يدعى النبوة ويدعى أنه معه آيات ودلالات ومعجزات. فإن قالت النصارى: نحن أولنا المسيح وهو سلفنا، وأنتم تقرون أن معه آيات ومعجزات، فكيف قلتم أن أولنا مثل آخرنا؟

قيل لهم: ومن سلم لكم أن المسيح عليه السلام سلفكم، ونحن قد دفعناكم عن هذا، وبيّنا أنكم قد خالفتم المسيح عليه السلام فى أصوله وفروعه، ونقضتم عهوده، وعطلتم وصاياه بياناً لا يمكنكم دفعه، ونحن فما علمنا أن المسيح نبى وأنه قد كان معه آيات ومعجزات بقولكم، ولا بنقلكم، ولا بدعواكم، وإنما علمنا ذلك بقول نبينا ﷺ ولكن ادعيتم أن هذه الأمم ما أجابت إلى النصرانية إلا بالآيات والمعجزات التى ظهرت على بولص وجورجس وأبا مرقس وأمثالهم، ودونتم ذلك فى كتبكم ما دونته المنانية

(١) في الأصل: فقد.

والمجوس وغيرهم، وادعيتم ذلك فى كل زمن، والناس معكم ويشاهدونكم فلا يرون لذلك أصلاً ولا أثراً، ولايرون إلا السيف والقهر والعسف وأن أول هذا الأمر ما كان إلا بالسيف والقهر كما قد بيّنا، وهو قائم باق ما زال ولا حال بال زاد.

ونحن فقد وجدناكم نزلتم على أهل المصيصة، وعين ذربة، وجزيرة أقريطش، وجزيرة قبرس[1]، وجزيرة أرواد، والثغور الشامية، والثغور الجزيرية، وثغور أرمينية، وأذربيجان، وما يكثر إحصاؤه، وما قد قدره أهل الخبرة إلى هذه الغاية، ومقداره ألف فرسخ منائر، وعمارته متصلة ومقدار السبى والأسر نحو عشرين ألف ألف إنسان، لا يقرون على الإسلام، بل يدخلون فى النصرانية كرهاً، بالرهبة والرغبة، وكذا من دخل فى ذلك من البرغر والبرجان كله بالإكراه والسيف، وإن طالت مدته، وتناسى الناس كيف جرى ذلك.

وادعيتم أن هؤلاء إنما دخلوا فى النصرانية بالآيات والمعجزات، وأن البطرك وافى من بلاد الروم، فنزل وجنده وعليه الجوذبا والكنين والودار وعلى رأسه القبع وفى يده الكرار، فأقام موتاهم من المقابر، فقاموا بأسرهم من تلقاء أنفسهم وصاروا إلى بلاد الروم. ووافى ميخائيل الراهب إلى أهل المصيصة فقلب سيحون زيتاً، وجعل أغنامهم كلها خيلاً، فقاموا كلهم من تلقاء أنفسهم فقبلوا الصليب، وصاروا إلى بلاد الروم. وكذا أهل سميصاط وحصن منصور، فليس عندهم فى الكذب والبهت شئ، وهم قوم يكذب لهم رؤساؤهم فيقبلون ذلك الكذب عنهم.

وقل مصر من هذه الأمصار وثغر من هذه الثغور إلا وقد ترددت إليه ملوك الروم السنين الكثيرة، ونزلوا عليه الأعوام المتوالية، ورعوا زروعهم وحصروهم ومنعوهم الأقوات، حتى أكلوا الكلاب والسنانير والميتة، وقتلوهم جوعاً وعطشاً، وقتلوا مقاتلتهم، وسبوا ذريتهم، وقادوهم بالسلاسل والحبال، وأنزلوا بهم من المكاره ما يطول شرحه، وكذا أمرهم من أوله إلى آخره. وليس سيفٌ حمل بباطل فى جميع الأزمان مثل سيف النصرانية كما قد بيّنا ذلك.

---

(١) يعنى جزيرة قبرص.

وحيث لا يكون لهم ملك ولا سيف فإن من أسلم منهم يمنعونه أهله، ويبطلون ديونه، ويذمونه بكل فاحشة، ويسعون فى كل ما يقدرون عليه من مكارهه وإضراره، وهذا أيضاً ضرب من الإكراه.

ثم يقال لهم: هذه المنانية قدغلبت على المشرق، وليس معهم سيف ولا مال، ويدّعون أن دينهم أضيق الأديان وأصعبها، وأنهم لا يأكلون اللحوم ولا يؤذون شيئاً من الحيوان، ولا يأكلون إلا ما أنبتته الأرض. وعبادتهم من الصوم والصلاة كثيرة عظيمة، ولا يدخرون الأموال، ويدّعون أن المعجزات اضطرتهم إلى هذا الدين، وهم يدّعون إن المستبصرين من رهبانكم ورؤسائكم منهم، ويدعون هرابذة المجوس.

قالوا: ولكن ليس لنا عند المسلمين ذمة كما لليهود والنصارى والمجوس، ومتى أظهرنا لهؤلاء ديننا قتلونا، قالوا: وكذا يصنع بنا ملوك الروم. ويذكرون من آيات مانى ومعجزاته أنه كان نوراً خالصاً كله وأنه لم يكن له فى الشمس ظل، وأن الملائكة كانت تأتيه وتحتمله حتى تصعد به إلى الشمس فيصير فيها، وأصحابه يشاهدونه، وأنهم نقلوا ذلك الجمهور عن الجمهور، والجماعات عن الجماعات، ويدّعون لأتباعه المعجزات، ويدّعون مع ذلك أنهم أصحاب المسيح وعلى دين المسيح، وأن الإنجيل الذى معهم هو الحق دون ما معكم، فينبغى أن يكونوا على قياسكم محقين، وأن ذلك إنما تم لهم بآيات ومعجزات كما ادّعيتم ذلك، ولهم كتب مدونة فى آياته ومعجزاته. ولعلها أكثر من السليحين الذى لكم، ومن الآيات التى تضيفونها إلى جميع من دعا إلى النصرانية، منذ كانت النصرانية.

وهذه الهند وهى أمم عظيمة لعلها تزيد على أمم النصارى[1] ولهم العقول والحكم التى لا تكاد تدانيها عقول الأرمن والروم، يعبدون البددة قبل تنصر الروم بالدهور الكثيرة، وليس يدعون الناس باتباعهم لا بسيف ولا برغبة ولا بالرهبة، ومن دخل فيه لم يمنعوه، وهم يدّعون أن أصنامهم تكلمهم وتأمرهم وتنهاهم، وتبدرهم بالأمور قبل كونها، وتأتيهم بالأمطار وما يسألونها

(١) في الأصل: للنصاري.

من الرخاء والنعم، وتدفع عنهم السوء، وتشفى مرضاهم، ويحملون زمناهم على الجنائز إلى سوق الأصنام فينقهون ويرجعون على أقدامهم، ويدّعون أنها تحيى الموتى، ولهم رقى يدعون أنها تشفى وتحيى، فينبغى أن يكون هؤلاء محقين صادقين.

والمجوس تدعى لزرادشت من المعجزات والآيات أكثر مما يدعيه النصارى لمن دعاهم إلى النصرانية، ويقولون: نحن لا نكره أحداً على الدخول فى ديننا ولا نرغبه فيه، وهو دين خصنا الله به، فمن دخل فيه لم نمنعه، وإنما نقاتل ونحمل السيف على الأمم لتأدية الخراج واندخول فى الطاعة فقط، فأما لأجل الدين فلا نحارب.

وعقول الفرس وحكمتها وتحصيلها قد عرفه الناس، وكثرة وسع ممالكها فوق ممالك الروم بطبقات، فينبغى على قياسكم أن يكونوا محقين وصادقين.

فإن قلتم لهم: لكم ملوك عتاة جبابرة هم أدخلوكم بالقهر والسيف والرغبة والرهبة فى هذا الدين، قالوا لكم: أما الدين فما تعرضوا لإدخال الناس فيه ولا اشتغلوا به، وإنما كان أخذهم للناس بالسمع والطاعة والخضوع للملك وهذا معروف.

والعيان والموجود من دين النصرانية وما عليه هذه الطوائف لهم القهر والغلبة والسيف متى كانت إلى هذه الغاية، وما هاهنا بسيف حمل بباطل إلا سيف النصرانية من أول أمرها إلى هذه الغاية.

وقد دعا واحد من اليهود الخزر وهم أمم كثيرة فأجابوه ودخلوا فى دينه عن قرب، وفى أيام بنى العباس ودولتهم، ولو أراد مريد أن يدعى أنهم إنما أجابوا إلا بالآيات والمعجزات كما يدعى النصارى لمن تنصر لأمكنه ذلك وكان أولى بالشغب من النصارى، فإن هذا رجل واحد قصد إلى ملك عظيم الشأن، وإلى قوم أولى بأس شديد، فأجابوه بلا غلة ولا سيف وتحملوا ما فى شريعة التوراة من الشدة بالختان والوضوء وغسل الجنابة وتحريم الأعمال فى السبت والأعياد، وتحريم ما فى هذه الشريعة من الحيوان، إلى غير ذلك.

ولعل اليهود تدعى لهذا الداعى الآيات والمعجزات، فمنهم من يجيزها للصالحين منهم، وهذا أولى بالشبه مما تدعيه النصارى، ولكن النصارى أكذب وأشد جرأة على ادعاء ما لم يكن.

ثم يقال للنصارى: ادعيتم لدينكم الضيق والصعوبة، وقلتم: هذا أحد الأدلة على صحته وعلى أن الأمم لم تقبله ولم تدخل فيه إلا بالآيات، فقد عرفنا من قولهم فى الآيات، ولو كان ضيقاً صعباً شديداً لما دل ذلك على صحته فإن دعواهم هذه كدعواهم المعجزات. وليس يدل على صحة الدين ضيقه وصعوبته، بل ربما احتال المخرق والمبطل على صحة ما يدعو إليه بالتصوف والتقشف وكثرة العبادة والمضايقة فيما يدعو إليه إلى أن يتمكن، ثم يظهر مساوئه، ويكون ذلك له شبهة على من يرى ذلك ويسمعه.

والنفوس ترحم المتصوف والمتقشف المواصل الصلاة والصيام وإن كان مبطلاً، ويحسن ظنهم فيه، ويسرعون إلى القبول منه قبل النظر فى حاله، ويكتفون بما يظهر منه عن البحث عن حاله، وفى النظر والبحث شدة ومشقة، وتنفر نفوسهم عن حامل السيف وإن كان محقاً.

وعلى أن ديانات المنانية أضيق من ديانات النصرانية لأنهم يحرمون أكل جميع الحيوان وركوبه وأذيته بكل وجه. حتى أنهم يحرمون قتل السباع والحيات والعقارب ويصبرون على أذيتها ويحرمون ادخار الأموال، ويوجبون من الصوم والصلاة أكثر مما توجبه النصارى، ويحرمون المناكح كلها ولذات النفوس، فينبغى أن يكون دين هؤلاء هو أصح من النصرانية بألف طبقة.

والهند لها عبادات كثيرة وزهد عظيم، لا يدانيه ما يفعله أزهد رهبان النصارى. وتوجب فى دينها قتل أنفسها، وتحرق أنفسها بالنيران وهم أحياء، وإذا مات رئيسهم أحرقوه وأحرقوا معه أحبابه وأصدقاءه وخاصته وزوجته، يفعل ذلك بها أبوها وأمها وأهلها، وليس فى دين النصرانية شئ من هذا، فينبغى أن يكون دين المنانية هذا[1] أصح من مذاهب هذه الطوائف النصرانية.

---

(٢) في الأصل: وهذا.

على أنا لا نعرف ديناً أوسع ولا أرخص ولا أسهل من دين النصارى، إذ ليس فيه زاجر مخوف كالحدود المكتوبة، ولا النار، ولا عذاب الآخرة، وأن أشد العذاب فى الآخرة أن المعاند الذى قد عرف الحق وتركه، يلحقه غمّ مدة ثم ينجلى وينقضى، فأما من لم يعاند، وإن أخطأ، وإن كان مع اعتقاده مخالفاً لدين النصارى فليس عليه خوف ولا عقاب، إذا كانت نيته سليمة واعتقد الشئ على أنه حق وإن كان باطلاً.

وأما النصارى فليس عليهم خوف، ولا يؤخذون بذنب من الذنوب، وقالوا لأن الرب الذى هو الأب[1] إنما أرسل ابنه ليصلب ويقتل ليحمل خطايانا ويغفر ذنوبنا. فليس دين يغرى بالقبيح، ويبعث على ارتكاب الفواحش، ويهيج على الفساد أكثر من دين النصرانية، وهم يدعون فيه الضيق قحة منهم ومباهتة، وهو كما ترى، وإنما يدعّون لأهله ولمن دعا إليه المعجزات لأنه ليس فيه حجة ولا على صحته دلالة.

ثم نقول للنصارى: أعندكم أن من حمل السيف كان مبطلاً؟ فإن قالوا: نعم، قلنا: فالمسيح أول المبطلين، لأنه[2] عندكم أرسل موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء بالسيف وقتل الرجال والنساء المخالفين له، وأحلّ له فى بعض الحروب قتل الرجال وكل إمرأة ضاجعت رجلاً ،إستبقاء الأبكار، وأحل له الغنائم وأخذ الأموال ودفعها إلى بنى إسرائيل، وكذا سائر الأنبياء الذين تتولونهم وتقولون إنهم على الحق، إلى أن جاء المسيح وظهر للناس، وقال: ما جئت مخالفاً لموسى ولا للتوراة وإنما جئت متمماً. ولأن تسقط السماء على الأرض أيسر عند الله من أن يحل شئ مما عقده موسى، ومن حل (شيئًا)[3] وأخذ من ناموس موسى يدعى ناقصاً فى ملكوت السماء[4].

---

(١) في الأصل: الإبن.
(٢) في الأصل لأنهم.
(٣) فى الأصل كلمة غير مفهومة.
(٤) النص الإنجيلى: (لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإنى الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل.) متى ٥ / ١٧، ١٨.

ثم ليس عند هؤلاء أخذ الجزية ممن ملكوه وقدروا عليه ولا إقراره على دينه، وليس إلا الإجابة إلى الدين أو القتل، وهذا أعظم وأشد وأغلظ من دين الإسلام وشريعته.

ونراكم تدعون للمسيح الرأفة والرحمة، وتنزيهه عن فعل الألم والشدائد والمضار والهموم، وهو عندكم قد شرع التوراة وأحكامها وحدودها، وغرق أهل الأرض فى طوفان نوح، وعندكم أن هذا الموت والجذام والبرص والعمى والصمم وإنزال الجرب والأسقام وأنواع الألم بالبهائم التى ما عصمت من فعله، ثم أباح ذبحها وأكل لحومها وإيلامها بالكد والركوب والحمل عليها إلى غير ذلك مما قد فعلوه، فأين الرأفة والرحمة، وأين هذا مما أباحه نبينا محمد ﷺ من قتل من كفر بالله وأفسد فى الأرض، هذا ولو[١] كنتم ترون المسيح نبياً مرسلاً لما وجب أن تعيبوا حمله السيف لأنه قد جاء وصوب حمل الأنبياء قبله للسيف، وإباحة الحيوان، وأن الأمراض والأسقام من الله ومن قبل الله، فكيف وأنتم [تدعون أن الفاعل لذلك جميعه هو المسيح][٢].

فما سمع بقوم هم أجهل وأوقح وأبهت من النصارى، إذ هذا قولهم وهم يعيبون حمل محمد ﷺ السيف على من كفر بالله وعبد الأوثان والكواكب والنيران من دون الله وكذبهم وبهتهم أكثر من هذا، فإن قالوا: إن هؤلاء الأنبياء حملوا السيف بأمر الله، قيل لهم: فقد بطل أن يكون حمل السيف باطلاً من كل وجه على ما ذهبتم إليه، ووجب أن يراعى حامله، فإن كان قد حمله بحجة كان محقاً. فينبغى أن ينظروا فى إعلام محمد ﷺ ومعجزاته وآياته، ويعلموا[٣] أنه مثل من تقدمه من الأنبياء.

وتدعون التصوف والتقشف وطول الصيام والصلاة، والنهى عن حمل السيف، وليس فى دين النصارى والمانية والديصانية وأشباههم حجة، فهم يخدعون الناس بلبس الصوف وإظهار الزهد.

---

(١) في الأصل: لو.
(٢) وردت هذه العبارة في الأصل علي نحو غير مفهوم.
(٣) في الأصل: ويعلمون.

ومثل هذا من جهلهم ومخاريقهم أنهم يعيبون محمداً ﷺ باتخاذه النساء، وهم يعلمون أن آدم ونوحاً وإبراهيم ولوطاً وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وهرون وداوود ويوشع وغيرهم ممن يقولون بنبوته ويشهدون بصواب مذهبه، قد اتخذوا من الأزواج والسرارى مثل ما اتخذ هؤلاء، بل فيهم من قد اتخذ فى ذلك أضعافاً مضاعفة كما كان لداوود وأمثاله.

والروم هم أصل النصرانية ولكنهم لم يجدوا فى رسول الله ﷺ مغمزاً فعابوه بحمل السيف واتخاذ الأزواج وهم يعيبون هذا منه ﷺ ويدعون أن الله قد اتخذ مريم أماً لولده واتخذ الولد لنفسه وإن لم يسموا[1] مريم زوجته.

ومن عجيب ديانتهم أن المذنب منهم يقول للقس والراهب: اعمل لى مغفرة وتوبة وتحمل ذنوبى، ويجعل له على ذلك جعالة على مقداره فى الغنى والفقر، فيبسط القس كساءه ويأخذ الجعالة ثم يقول للمذنب: هات الآن واذكر لى ذنوبك ذنباً ذنباً حتى أعرفها وأتحملها - فيبتدىء ذلك المذنب رجلاً كان أو إمرأة ملكاً أو سوقة فى ذكر ما قد فعله شيئاً شيئاً، حتى يقول: هذه كلها، فيقول له القس: إنها عظيمة ولكن قد تحملتها وغفرت لك، فأبشر. وربما جمع الكساء من أطرافه ووضعه على ظهره وقال: ما أثقل ما فى هذا الكساء من الذنوب.

ومن المأثور عنهم والشائع عليهم أن المرأة تقر عند القس بذنوبها، فتقول: أصابنى رجل فى يوم كذا فيستفهمها كم مرة فتقول: كذا وكذا، فيقول لها: أخبرينى هذا الرجل نصرانى أم مسلم، فربما قالت: مسلم، فيستعظم هذا، ويستزيدها فى الجعالة، فإن زادته، وإلا غضب وانطلق وهو يقول: قد زنى بها المسلمون وتريد أن أغفر لها وإنما أعطتنى كذا وكذا، فتردّه وتزيده وترضيه.

هذا من دينهم الذى يدعون ضيقه، ويدعون أنه على دين المسيح، وهذا لا يجوز أن يكون دينا له عليه السلام.

---

(١) فى الأصل: يسمون.

وقد قيل لبعض قسوسهم ما هذا من التوبة؟ فقال: وما وجه تركنا لهم لا نسألهم عن ذنوبهم ونطمعهم فى غفرانها، فإنا لو لم نفعل ذلك ونأخذ المال منهم لافتقرت البيع.

وقل ما تجد منهم من يخاف عذاب الآخرة، لأنهم يعتقدون أن المسيح إنما قتل نفسه ليقيهم من الذنوب والعذاب، وأنه جالس على يمين أبيه، وأمه جالسة مما يلى يساره فهى تتلقى الذنوب إذا طلعت وتقول لابنها: سل يا بنىّ أباك الرب غفرانها، فهو عندهم يغفرها ويسأل أباه غفرانها.

والملوك بمصر والشام والعراق والجزيرة وفارس وما والى ذلك يعولون على النصارى فى الكتابة والوزارة والجهبذة، فلهم الرئاسة على المسلمين، يجبون أموالهم ويأخذونها منهم بالضرائب الموضوعة على كل شئ مما لم ينزل الله به سلطاناً، فيذلون بها الإسلام، وينفقونها فى مكاره المسلمين.

وللفرس أيضاً مثل هذه الفضائح التى تقدمت للنصارى، وهو أن زرادشت قد شرع لهم تطهير الحائض والنفساء والتى قد مات جنينها فى بطنها ببول البقر يتولى ذلك منها الهريذ بعد أن يجردها ويعريها، ويباشر ذلك منها بيده ورأى عينيه، فيبركها ويغسل ذلك المكان بيده، وربما جزعها منه جزعاً وأخذ على ذلك الجعالة على مقدارها، وأول ما يأخذ الخلعة التى عليها إذا جردها للتطهير، وأقل ما يأخذ على أفقر فقير أربعة مثاقل فضة.

وزعم الفرس والمجوس أنه كان يرتفع لمويذان مويذ فى أيام ملكهم من هذا الوجه أربعة ألف ألف دينار ينفقها على الهرابذة، وشرع لهم بالإنجاب على زوج المرأة إذا غاب عن امرأته أو عجز عن بضاعها، أن يوكل فى جماعها[1] من يختاره من أصدقائه وثقاته ورفقائه.

ولم نكن فى الرد على المجوس ولا النصارى، إنما قصدنا البيان أنهم مخالفون للمسيح ودينه فى الأصول والفروع.

فهذا يرحمك الله أصل مذهب النصرانية، ومذهب القراء والزهاد

---

(١) في الأصل كلمة تخدش الحياء بدلناها بكلمة (جماعها).

منهم، فأما أهل الجدل والنظر ومن يتجرد فى نصرة النصرانية ويضيف الكتب فى ذلك فكلهم ملحدة وزنادقة، ويكذبون المسيح وجميع الأنبياء عليهم السلام، ويستجهل الشرائع ومن يعمل بها فلا تكاد تجد فيهم إلا من هذه سبيله، مثل: قسطا بن لوقا، وحنين بن إسحق، وابنه إسحق، وقويرى، ومتى الجرمقانى، وهو المكنى أبو بشر بن يونس الذى فسر كتب الملحدة، وهلك فى سنىّ نيف وعشرين وثلثمائة، وبعده يحيى بن عدى، وعنه أخذ هؤلاء الملحدة الذين فى زمانك، ومذهبهم لا يقوم بالجدل.

وإذا قيل لهم: قالوا: حجتنا فى ذلك على لسان أرسطاطالس ومن قوله ومن أصوله، وأرسطالس لا يؤمن بكتاب ولا نبى ولا شريعة، وينكر فلق البحار، وانقلاب العصا حية، وإحياء الموتى، وولادة مريم من غير ذكر، ويرى أن التصديق بذلك جهل وحمق وقلة عقل.

فانظر من أولى بقلة العقل، هو أو من يجعله حجة لدينه ويأخذ عنه، فما بعد هذا فى فضيحتهم شئ. فاعرف هذا من طريقتهم، فقد تبين لك أن ديانات هؤلاء النصارى خلاف ديانات المسيح ووصاياه، وعهوده، وعلمت علم محمد ﷺ بذلك، وأن علمه به من قبل الله، وأنه من معجزاته.

والنصارى تقول: لعمرى إن المسيح ما عمل طول حياته بشئ مما نحن عليه، وكذا تلاميذه من بعده فما لزموا شريعة التوراة ولكن من أتى بعدهم نقلونا وقالوا لنا قد قال المسيح: اعملوا بعدى بما ترون، قلنا: قد صدقتموهم فى دعاويهم وهم قد جاؤوا بالرئاسة عليكم والتحكم فيكم وفى أموالكم.

فإن قالوا: إننا لم نقبل منهم إلا بالمعجزات، فقد فرغنا وبيّنا كيف كان الأصل من قسطنطينوس ابن هيلانة وبيّنا أن المسيح وصاهم بشريعة موسى عليه السلام، وأن يعملوا بما رأوه يعمل طول حياته بما قدمناه؛ من تجريد التوحيد، وتنزيه الله عز وجل، وبإقامة الشريعة كما بينا.

وحديث انتقالهم فى كتابهم المعروف بأفرسكس وفى السنهودس الذى لهم، وإنما هم ينهون من لا يعرف،، ويقولون: نحن على شريعة المسيح، فإذا

وافقهم العارف بذلك، قالوا: قد انتقلنا بالآيات والمعجزات، فإذا عرفهم حال قسطنطينوس بن هيلانه وما فعله وجميع هذا الذى بيناه، قالوا: نهينا عن الجدل والبحث والتفتيش.

ومن عجيب أمورهم أن معهم وفيما حفظوه عن المسيح أنه عليه السلام قال لهم: إنكم تأتونى يوم القيامة، وليحشرن إلىَّ سكان الأرض فيقومون عن يمينى وشمالى، فأقول لأبناء الشمال: لقد كنت جائعاً فما أطعمتمونى، وعرياناً فما كسوتمونى، ومريضاً فما عدتمونى ولا داويتمونى، ومحبوساً فما زرتمونى، فيكون من جوابهم أن يقولوا لى: متى كنت يا سيدنا مريضاً أو عرياناً أوجائعاً أو محبوساً؟ ألم نكن باسمك نتنبأ، وباسمك نشفى المرضى، وباسمك نأكل ونشرب؟

فأقول لهم: قد كنتم تذكرون اسمى ولا تشهدون على بالحق، ابعدوا عنى يا عاملى الإثم. ثم أقول لأبناء اليمين: هلّم أيها الصالحون إلى رحمة الله وإلى الحياة الدائمة، وليس هاهنا من يطعم ويكسو أو يداوى المرضى ويأكل ويشرب باسم المسيح ويفعل ذلك للمسيح إلا هؤلاء الطوائف من النصارى. فهذا نص واضح ببراءته منهم، وعداوته لهم.

والروم تأكل الخنزير وجميع الحيوان وذبائح الناس كلهم، فتبعوا الروم فى هذا كما تبعوهم فى غيره. فإذا قيل لهم فى ذلك، قالوا: إن شمعون الصفا رأى فى المنام، وإذا ثوب مربوط بأربعة أطرافه وهو ينزل من السماء إلى الأرض وفيه كل الدواب ذوات الأربع القوائم وزواحف الأرض، وطير السماء، وحيوان الماء. وسمع صوتاً يقول: قم يا شمعون، قم اذبح وكل، فقال شمعون: حاشا لى يا رب، فإنى منذ قط لم آكل شيئاً نجساً، فعاد الصوت المرة الثانية يقول له: لا تنجس ما طهره الله، وهذا عندهم رآه شمعون بعد موت المسيح ورفعه.

قلنا: فقد شهد شمعون أن هذا مما حرمه المسيح ونجسه، فقد أكد فضيحتكم إذ هو ما جاء إلا بالتمام لا بالتغيير والنسخ.

والعجب أن معهم فى أشعيا النبى[١] أن شر الأمم وأنجس الأمم وأخبث الأمم هذه الأمة ذات القلفة، الآكلة للخنزير، وكل البهائم. وهذا هو صفتهم.

وفى النصارى من يزيد فى الكذب والمخرقة ويقول: إنما قتل اليهود المسيح لأنه أحيا الموتى وأقام الزمنى فى يوم السبت، وهذا دليل على أنه أحل السبت، ونسخ ما فى التوراة.

قلنا: قد بينا ما فى الأناجيل وفى أفراسكس من وصايا المسيح بالتوراة، وما عمله، مما فيه بطلان هذه الدعاوى.

ومما يزيد فى البيان عن كذبهم قول متى فى إنجيله: «إن المسيح كان يتمشى بين الزروع يوم السبت، وكان تلامذته قد جاعوا، فجعلوا يفركون السنبل ويأكلون، فلما رأى الأحبار ذلك قالوا له: إن تلاميذك هوذا يفعلون ما لا يحل لهم فعله فى السبت، فقال المسيح: فما قرأتم ما صنع داود إذ جاع، كيف دخل بيت الله وأكل من خبز مائدة الرب الذى لم يكن يحل له أكله، ما خلا الكهنة فقط».

وقال لهم أيضاً: «وما قرأتم فى التوراة أن الكهنة فى الهيكل يحلون الهيكل وليس عليهم لوم». فانظر كيف بين أن هؤلاء ما حلّوا[٢] السبت ولا ما فى التوراة، وأنهم إنما عملوا بما يحل فى التوراة، ولكنكم أنتم جهلتم، فلو كان قد نسخها لقال لهم: إنما فركوا السنبل فى السبت لأن الله قد نسخ ذلك على يدى، ولم يحتج إلى تبيين حال الاضطرار».

وذكر متى فى إنجيله أن المسيح لما أبرأ الرجل الأمثل قالت له اليهود: هل يحل الإبراء فى السبت؟ فقال لهم: إذا وقع لأحدكم كبش فى البئر أما تستخرجونه، فالإنسان أفضل من الكبش، وأنه يجوز أن يفعل الفعل الجميل فى السبت، فلو كان حل السبت لقال ذلك وأظهره ولم يحتج، وقد قال لوقا فى

---

(١) في الأصل: شعيا بدون ألف. وكثير من كتب التراث تفعل ذلك.

(٢) هكذا في الأصل، ولعلها أحلوا.

إنجيله: «أن المسيح كان يعلم فى يوم السبت فى بعض الكنائس، وكان هناك إمرأة بها مرض منذ ثمانية عشر سنة، وكانت منحنية، ولم تك تستطيع أن تبسط قامتها، فلما رآها المسيح قال لها: أيتها المرأة قد أطلقت من مرضك، فعوفيت من ساعتها. فقال رئيس اليهود: إن الأيام التى يجوز فيها العمل ستة ففيها تعالجون لا فى السبت، فقال له المسيح: أما يطلق أحدكم ثوره أو حماره عن المعلف فى يوم السبت ويذهب ويسقيه الماء، فهذه التى هى بنت إبراهيم عليه السلام، وقد ربطها للشيطان منذ ثمانية عشر سنة لا يجب أن تطلق عن الأسر[1]». فلو كان كما قال هذا الكذاب، لقال: السبت منسوخ، وكل الأعمال فيه جائزة مباحة.

وذكر متى فى إنجيله: أن المسيح خبر ببلاء ينزل بأصحابه وجلاء، ثم قال لهم: صلوا لله وارغبوا إليه أن لا يكون هربكم وجلاؤكم فى يوم السبت ولا فى الشتاء. وهذا قاله لهم عند فراقه إياهم ووداعه لهم، لتعلم تأكيده لإقامة السبت من بعده والتمسك بشرائع التوراة، وإنما أمرهم مسألة الله ألا يكون هربهم فى يوم السبت، لأنه لا يحل لهم أن يحملوا فى يوم السبت شيئاً من أمتعتهم وأموالهم، وإنما يحتاج النجاة بالنفس لا غير. وكل هذا بيَّن رفض النصارى لدين المسيح.

وإذا قيل: لم تصلون إلى المشرق وقد علمتم أن المسيح لم يزل يصلى إلى بيت المقدس إلى أن خرج من الدنيا، وإنما المشرق قبلة الروم؟ قالوا: لأن الله خاطب الأنبياء من قبل المشرق، وبعضهم يقول: أن المسيح لما صلب أمال وجهه إلى المشرق فلهذا صلينا إلى المشرق، فقيل لهم: فمن أعلم بالمصالح أنتم أم المسيح، وقد علمتم وتيقنتم أنه ما صلى إلى المشرق، ولكنكم صرتم إلى ديانات الروم وفارقتم دين المسيح.

وفى الإنجيل سألته السامرية: أرى إنك نبىّ أنت، آباؤنا إنما سجدوا فى هذا الجبل، وأنتم تقولون: إن الموضع الذى يجب السجود فيه إنما هو أورشليم

---

(١) انجيل لوقا الإصحاح ١٣ الفقرات ١٠ / ١٧.

قال لها يسوع: أيتها المرأة(١) صـدقت(٢)، أمـ إن بين أتباعه من لا يسجدون للرب لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم(٣).

فانظر إلى الإفصاح والبيان فى هذا أن المسيح إنما كان يصلى إلى أورشليم وهو بيت المقدس، ليعلم أنهم خالفوا ما كان عليه.

وقد ذكرت لك أنه ما قصدنا بيان فسـد النصرانيـة، إنما قصدنا البيـان عن مفارقتهم لدين المسيح ومخالفتهم له فى الأصول والفروع جميعاً مع شدة تحققهم به، وأن علم محمد ﷺ بذلك إنما هو من قبل الله عز وجل، وأن ذلك من معجزاته وآياته وإن كان قد اتفق من حكايات أقوالهم والرد عليهم ما لا يكاد يوجد فى كتاب، سيما حكاية تسابيحهم وأقاويل رؤسائهم.

فاحتفظ بذلك فإنك لا تكاد تجده فى كتاب، وبك إلى حفظه أمس الحاجة.

فأما المسألة لهم والرد عليهم فكثير.

فمن ذلك، كتاب الجاحظ، وكتاب آخر له يعرف بالرسالة العسلية، ولأبى جعفر الإسكافى، ولأبى بكر أحمر بن على بز الأخشيد قطعة حسنة فى كتاب المعونة. ولأبى عيسى الوراق كتاب عليهم، ولأبى على كتاب عليهم، ولأبى هاشم مسألة فى البغداديات، وفى أصول ابن خلاد وفى شرحه، وفى الإيضاح لأبى عبد الله البصرى، رحمة الله عليهم أجمعين، كلام عليهم. وليس عندهم أن المسيح تكلم فى المهد، ولا أتى ببراءة ساحة أمه، وأكثر ما عندهم أن مريم عليها السلام كانت مملكة بابن عم لها يقال له يوسف بن(٤) يعقوب النجار،

---

(١) في الأصل: الامراة. (٢) في الأصل: صدقتي.

(٣) النص الإنجيلى: (قالت له المرأة: يا سيد أرى أنك نبى. آباؤنا سجدوا في هذا الجبل. وأنتم تقولون: إن أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه قال لها يسوع: يا امرأة صدقينى أنه تأتى ساعة لا في هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب) انجيل يوحنا - إصحاح ٤ الفقرات ١٩-٢١.

(٤) في الأصل و

وأنها كانت عنده، وأن الناس كانوا يرون أن المسيح ابن يوسف، إلى أن عمّده يوحنا فى الأردن، وجاء الصوت من السماء: هذا ابنى الذى سررت به نفسى. قالوا: فعلمنا أنه ابن الله تعالى لا ابن يوسف النجار.

قالوا: وكان هذا بعد أن أتى على المسيح ثلاثون سنة، وكان الناس لا يشكون أنه ابن النجار إلى أن جاء هذا الصوت بزعم النصارى، فأى سخف وضعة وطعن فى حكمة الله أعظم من هذا، وهو عندهم رب العالمين، وقد خلّى عباده يقذفون أمه.

وفريق منهم وهم الخاصة يذهبون إلى أن ربهم يهودى بن يهودى، مولود من يهودية، وأن أمه يهودية، وقال متى فى إنجيله: «لما ظهر الحمل بالمسيح بمريم البتول هم يوسف النجار بطلاقها، فأتاه الملك فى المنام فقال له: يا يوسف النجار لا ترتب بحليلتك مريم فإن الحال فيها من روح القدس، فأمسك عن طلاقها.

فانظر كيف يشهد بأنها حليلة يوسف النجار وزوجته، وأنه هم بطلاقها وأتهمها بالزنى وأراد طلاقها فراراً من العار.

وبعضهم يذكر فى ترجمة إنجيله: هذا ميلاد يسوع[1] بن يوسف النجار، ومتى يقول فى إنجيله: هذا ميلاد يسوع[2] المسيح، وقال: يعقوب والد يوسف رجل مريم التى منها ولد يسوع المسمى مسيحاً، فانظر كيف يحققون أن يوسف زوجها.

وفى الإنجيل أن المسيح لما ولد ختن بعد ثمانية أيام، وأن يوسف النجار أخذه مع أمه وخرج بهما إلى مصر فأقام أثنى عشر سنة، ثم أخذهما وردهما إلى بيت المقدس.

وفيه أن يوسف دخل بيته فقال لمريم: أين الصبى، يعنى عيسى المسيح، فقالت له: ظننته معك، فقال: وأنا ظننته فى البيت عندك ومعك، فقلقاً لذلك وخافا عليه الضياع، فخرجا جميعاً فى طلبه، فقال يوسف النجار: لمريم خذى أنت طريقاً وآخذ أنا طريقاً آخر، فلعل واحداً منا يجده. فمشيا متحرقين،

(٢،١) فى الأصل: ياشوع.

فلقيته مريم أمه فقالت: يا بنى، أين تكون؟ ظننتك مع أبيك وظنك أبوك عندى فلما لم يرك قلقنا فأخذ أبوك فى طريق وأخذت أنا هذا الطريق، فأين كنت، ومع من كنت وأبوك متحرق عليك؟ فقال: كنت فى بيت المقدس أتعلم.

وذكر متى فى أنجيله: أن المسيح اجتمع مع اليهود وضرب لهم الأمثال، فلما فرغ المسيح من هذه الأمثال تحول فدخل مدينته، وكان يعلم فى كنائسهم فكانوا يتعجبون ويقولون: من أين لهذا هذه لحكمة، أليس هذا ابن يوسف النجار، أليس أمه التى تسمى مريم وأخوته يعقوب وشمعون ويهوذا وأخواته كلهن أليس هن عندنا.

من أين لهذا هذا كله، وجعلوا يحتقرونه ويأثمون فيه ويقذفونه، والمسيح يقول لهم: ليس من نبى إلا ويحتقر فى مدينته، والنصارى توافق المسلمين فى أن المسيح ولد من غير ذكر، ثم يقولون فى أناجيلهم: إبن يوسف النجار زوج مريم أم المسيح ورجل مريم، وأبو المسيح، وأنه كان يدعى بذلك ويعرف به غير متناكر بينهم، وأنه كان له إخوة وأخوات.

وفى أناجيلهم وأخبارهم لما طلب جاءته أمه مريم ومعها أولادها يعقوب وشمعون ويهوذا، فوقفوا حذاءه، فقال لها وهو على الخشبة: خذى أولادك وانصرفى، فما الذى بعد هذا فى البيان أن مريم ولدت بعد المسيح من يوسف النجار هؤلاء الجماعة وكانوا إخوة المسيح من أمه، فأى فضيحة تكون أبشع من هذا.

ومن عجيب أمر النصارى، أن أصحاب الأناجيل الأربعة قد قصدوا إلى ذكر نسب يوسف النجار خاصة، وليس فى ذلك نسب للمسيح إذا كان مولودا من غير ذكر، وإنما يتصل نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام من قبل أمه لا من قبل أحد من الرجال،، وهذا تخليط بيّن وجهل ظاهر، ولذلك وجد اليهود السبيل إلى الطعن فى المسيح.

ولتعلم رحمك الله، أن هذه الطوائف من النصارى أجهل عالم الله بالمسيح وأخباره وأخبار أمه، وأن كل واحد من أصحاب هذه الأناجيل إنما تلفظ ما كتبه بعد المسيح بالدهر الطويل، وبعد مضى أصحابه عمن لا يعرف ولا يحصل، وفيها من الاختلاف والتناقض لما هم عليه ما يطول شرحه.

وفى أناجيلهم أن المسيح أتاه قوم من اليهود يسألونه آية فقذفهم وقال مجيباً لهم: إن القبيلة الخبيثة الفاجرة تطلب آية ولن تعطى آية خلا آية يونان النبى، هذا على قولهم يدل أنه ما معه آية بهذا الإفصاح، وأنه ما ادعى ذلك عند الحاجة إليه.

والنصارى لا تعرف الربوبية ولا تفرق بينها وبين الإنسانية ولا يقوم على أحد حجة بنقلهم وادعائهم إلا بآيات للمسيح، ولولا شهادة رسول الله ﷺ للمسيح عليه السلام بالنبوة لما عرف أحد ذلك.

ومن أكبر كيد رؤساء النصارى، ادعاء المعجزات لأنفسهم ولأمثالهم ممن سلف من رؤسائهم، والنصارى تقبل ذلك منهم بغير برهان ولا حجة، فإذا مات ذلك الرئيس من راهب أو قس أو مطران أو جاثليق قعد راهب وقال: أنا كنت أخدمه فرأيت منه العجائب، فترحموا عليه معشر النصارى، وتوسلوا إلى الله به فإنه شاهد، فاشهدوا قبره وأكثروا زيارته.

فيقول النصارى له: يا ربن حدثنا بما رأيت منه فيمتنع ويقول: أعفونى من الشرح، وكلما تمنع لجّوا فى مطالبته، فيقيم على الامتناع فيزدادون حرصاً فى استخباره، فيقول: إنه فى حياته ما تحدث به فما أحب أنا أن أتحدث به بعده، وإنما ذكرت لكم فضله لتتوسلوا إلى الله به. فإن صدقتمونى فافعلوا وإلا فدعوا فما يضرنى وليس هى إعجوبة وآية لى وإنما هى له، فيزدادون حرصاً، فيقول: قد كان انقطع بنا الزيت فى البيعة، وكان لا يطلب الزيت من أحد ولا يدعنى أطلبه، فإذا كان الليل أشعل القنديل وقام إلى جرة له فيها خل فيصبه فى القنديل فيصير من ساعته زيتاً فيصطبح به كذا وكذا شهراً وقد كان فى الجرة أكثر من خمسين رطلاً خلاً وهو فى الجرة نأكله عند الإفطار، وفى الليل إذا قلبه فى القنديل صار زيتاً.

ويتحدث آخر عن راهب صحبه، يقال له أبا مرقس، وأنه كان كثير العبادة، وأنه توكل على الله وألقى نفسه فى البحر، وقال: يفعل الله بى ما شاء، إن شاء غرقنى وإن شاء نجانى وألقانى حيث شاء من أرضه، قال: فما

جسرت أن أفعل مثل ما فعله، وأقمت بمكانى بعده على ما فىَّ من وحشة فراقه مدة طويلة، ثم دعانى ما فى من الوحشة له أن افعل مثل فعله، فإما أن أغرق فأستريح من الوحدة. ففعلت وبقيت فى البحر مدة، ثم ألقانى الله إلى أرض لا أعرفها ولا بها ينبوته يأكل منها حيوان؛ فأقبلت أمشى فيها فوقعت عينى على شخص قائم يصلى فقصدت نحوه فإذا هو «أبا مرقس» صاحبى، فقلت له: رين، منذ كم أنت هاهنا؟ قال: منذ فارقتك ألقانى الله إلى هذه الأرض، فقلت له: من أين تعيش وليس هنا ينبوتة يأكلها حيوان، فقال: إذا كان العشاء التفت من صلاتى فأجد سمكة مشوية حارة فى طبق ورغيفين وسكرجة عسل، فأُفطر على ذلك ويرتفع الطبق ولا أرى من يرفعه ولا من يضعه، فقلت له: هذا المقدار هو قوتك أنت وإن شاركتك فيه ضيقت عليك، فكيف أعمل أنا وهذه أرض قفر، ما بها نبات ولا بها ييس[1]، فقال: ما أدرى وإن شئت أن تقيم وتشاركنى فيما يجيئنى فافعل. فأقمت.

فلما كان العشاء إذ بطبقين وسمكتين ورغيفين وسكرجتين، أحدهما لى والأخرى له. فقال لى: قد جاءك من الرزق مثل ما جاءنى، فأقمت معه كذا وكذا سنة، فمرض ووصانى بدفنه وأمرنى أن[2] انصرف بعد دفنه إليكم لأعرفكم خبره لتزدادوا بصيرة فى دينكم، ولولا وصيته لما فارقت المكان.

ويقول آخر من الرهبان لهم: أبشروا معشر لنصارى، فإن دينكم الحق، فقد رأيت من العجب ما عرفت صحته، فيقولون له: مثل أى شئ رأيت فيقول: ليس هو شئ لى وإنما هو لغيرى، وهو أنى كنت فى جملة الجاثليق فلان، فقال لى: يا أخى بلغنى عن مطران خراسان أنه يأكل اللحم، فامض إليه وقل له: أما علمت أن المطران لا ينبغى له أن يأكل اللحم؟ فمضيت إليه فاتفق دخولى عليه وبين يديه مقلى مملوء عصافير قد قليت وهى حارة، وهو يأكل، فقال لى: كل، فقلت له: أبونا الجاثليق أرسلنى إليك يقول لك: أما علمت أن المطران

---

(١) في الأصل: أيبس.

(٢) ليست في الأصل.

لا ينبغى له أن يأكل اللحم، فقال لى: هكذا قال لك أبونا؟ فقلت: نعم، فرفع يده وقال لى: نعمل ما قال أبونا، وقال لتلك العصافير التى فى المقلى: كش، فتطايرت كلها، ورفع المقلى، فيصدقونه ويدونون ذلك، ويكتبونه.

ويطرأ على من بالعراق منهم وما والى العراق راهب لا يعرفونه، فيقولون له: وقد دخل البيعة: ربانى، من أنت، ومن أين جئت؟ فيقول: دعونى واعفونى فيراجعونه فيقول: ذنبى عظيم وفضيحتى فاحشة فلا تسألونى عن شئ، فيلحون فى سؤاله فيقول: بشرط أنكم تسترون علىّ، فيقول: أنا كنت رجلاً يهودياً شديد البغض للنصارى والمسيح، وسمعتهم يقولون فى الإنجيل أن المسيح قال: من كان نصرانياً خالصاً وقال للشجرة قفى على أمواج البحر ولا تبرحى، فإنها تقف.

وكنت لا أصدق بهذا فجئت إلى الملك وقلت له: أنا رجل يهودى، وقد قلتم أن المسيح قال لكم كيت وكيت، فإن صح هذا ورأيته بعينى تنصرت من ساعتى. فوجه الملك إلى السواد فجاؤوه بشيخ ضعيف البنية وعليه المسوح، فقال له: هذا رجل يهودى، وقد قال كذا وكذا، فهات ما عندك فى هذا، فأقبل الشيخ علىّ وقال: يا هذا اتق الله، إن كنت متعنتاً فامض بسلام ولا تؤذنا، وإن كان ما تقوله حقاً وعن نية صادقة فعرفنى، فحلفت له على صدق نيتى.

فقال لى: اذهب إلى الصحراء فانظر أى شجرة شئت فعلّم عليها وارجع إلىّ فعرفنى العلامة، فذهبت وأعلمت على شجرة عظيمة ورجعت إليه فعرفته، فقال لى: تجيئنى فى غد حتى أريك شجرتك على موج البحر كما اقترحت، فجئته من غد وأخذ بيدى وجاء بى إلى البحر فأرانى الشجرة التى أعلمت عليها قائمة منتصبة على موج البحر فتنصرت، فأنا أسيح فى الأرض وأبكى على ذنوبى وذهاب أيامى فيصدقونه، ويكتبون ما قاله، ويكون مما يدرس فى البيعة ويسمعه الرجال والنساء.

ويجيئهم آخر من الرهبان فيبكى، فيقولون له: من أنت، وما يبكيك؟ فيقول: دعونى فإن مصيبتى عظيمة، فيقال له: اذكرها يا بنى، فيقول: ما اعقل أمرى، وما أدرى ما أقول، فيقولون له: على كل حال اذكر مصيبتك

وعرفنا حالك، فيقول: أو ليس قد مات أبونا جورجس؟ فيقال له: ومن جورجس؟ فيقول صاحب البلا الفلانى والصومعة الفلانية، فيقولون: ما نعرفه، وربما فيهم واحد يقول: قد سمعت به، فيقول: فهل بلغتكم آياته ومعجزاته، فيقولون: حدثنا بها، واذكرها لنا. فيقول: لِمَ أذكرها لكم، ما أنتم نصارى بل أنتم خلاف النصارى، ولو كنتم نصارى لعرفتموه وعرفتم آياته ودلالاته. فيسألونه ذكرها فيأبى ويتمنع، فلا يزالون يراجعونه فيخبرهم أن الملك الفلانى أرسل فأشخصه، وقال له: ارجع عن هذا الدين وأنا أعطيك وأكرمك وأشاركك فى ملكى، فأبى، فحبسه فى محبس وثيق ضيق ثم طلبه من السجان فما وجده فى السجن، فلحق السجان من الملك كل ما يكره، وقال له: انت اطلقته، وبث الرسل فى طلبه فوجدوه فى صومعته فأتوا به الملك فقال له: أخبرنى عن السجان، أهو الذى أطلقك؟ فيقول: لا، المسيح أخرجنى، وفتح الأبواب لى، وحجب الأبصار عنى.

فقال له الملك: أنا الآن أحبسك فى محبس، فقل للمسيح يطلقك. فحبسه فى حبس وثيق من وراء أبواب حديد مقفلة، ثم طلبه فما وجده. فأرسل إلى صومعته فإذا هو فيها، فجاء به، وقال له: من أطلقك فقال له المسيح: فرده إلى الحبس وقيده وثقله بالحديد وزاد فى التوثق، ثم طلبه فما وجده فى الحبس، والأبواب والأقفال كما كانت. ووجد القيود؛ فأرسل فى طلبه فوجده فى صومعته فجاؤوا به وقد اغتاظ الملك مما يتم له، ومن تخجيله له مرة بعد أخرى، فأمر فضربت عنقه ودفن.

فلما كان من غد يوم دفنه وجدوه فى صومعته، وقيل ذلك للملك، فبعث وأحضره وقطعه إرباًوحمل وفن فلما كان من غد وجده فى صومعته، وقيل ذلك للملك، فأرسل وجاء به وقطعه إرباً ودعا بنار فأحرقه وأمر برماده فألقى فى البحر، فلما كان من الغد وجدوه فى صومعته فأرسل الملك وجاء به واعتذر إليه وتنصر.

---

(١) في الأصل: لما.

obeikandi.com

فيقول الراهب: وكل هذا كان منه وأنامعه وأشاهده منه وما فعله الملك به، فمثل هذا لا أبكى عليه، ولا تعظم مصيبتى به، وأشد من هذا، جهلكم وغفلتكم حتى كأنكم ما أنتم نصارى ولا سمعتم بالنصرانية، ويبكى، فيصدقونه ويعتذرون إليه من غفلتهم وجهلهم بهذا الرجل وبما كان معه، ويجتمعون: رجالهم ونساؤهم وصبيانهم، ويسألونه ذكر ذلك لهم، فيعيده على فوج بعد فوج، فينصرفون عنه وقد صدقوه.

وينبثون ويتحدثون بذلك سروراً به، ويخلدون ذلك، ويجعلون لمثل هذا أعياداً، ويجعلون له أياماً معلومة يقيمون هذه الأعياد فيها، ويعيدون حديثهم ليتطرأ ذكرها وليسمعها من يشاء من ذراريهم، ويسمون ذلك ذكران؛ فيقولون: هذا ذكران جورجس، وهذا ذكران أبا مرقس، وهذا ذكران فلان.

ويجيبهم آخر، فيقول: تدرون معشر النصارى لم صار فى العرب والقبط والحبشة والفلانيين نصارى؟ فيقولون: لا، فيقول: ولكننى أدرى ولو كنتم نصارى لدريتم، فيسألونه فيخبرهم. فيقول أن الآباء الأوائل باتوا ليلة لسانهم واحد، فأصبحوا وقد نطق كل واحد منهم بلسان أمة من الأمم، فانطلق كل واحد منهم إلى تلك الأمة التى نطق بلسانها، فدعاهم بلسانهم، وأظهر لهم الآيات والمعجزات، وإلا فقولوا لنا: لم تنصرت الأرمن والعرب والقبط والحبشة؟ فيقولون له: صدقت، هذا برهان نيّر فيكتبون هذا ويدونونه ويجعلون له عيداً وذكراناً.

وهذا أصله ومخرجه وأوله. فإذا تخلد وانبثّ ومرّت عليه الدهور وأتت عليه الأعصار، ادعوا أنه شئ كان أصله بمشاهدة الأمم لأن الكذب فيما تقادم عهده أمكن. وإنما يجعلون له ذكراناً وعيداً ويوماً بعينه لتتم الحيلة فيه، وليظن من يسمع أنه ما جعل له عيد ويوم معلوم وتاريخ مؤقت محدود إلا وهو حق وله أصل ليتأكد الكذب ويتم التمويه، وليتصل البر والصدقات على الرهبان فى هذه الأعياد. والفطناء من النصارى يقولون: هذه الآيات والمعجزات إنما هى من احتيالات الجثالقة والرهبان ومن يبغض العمل ويفر

من الكد، ويسمونهم بلغتهم السريانية «عازق معناثا» معناه أنه ترهب ولزم الدير ليأكل من غير ماله ويستريح من الكد، والرهبان إذا ما تشاحنوا على ما يأخذون يقول أحدهم لصاحبه: النصارى يفضلونك علينا، ويعطونك أكثر مما يعطونا، ومالك من فضل علينا، كلنا قد فر من العمل، وإنما نحن نصلى للنصارى، ولهم من المكاشفات ما يطول شرحه، ولكن ليس متأمل ولا متخرق على الإسلام ولا متفقد[1].

وربما ورد الراهب على النصارى بمثل ما قدمنا، فيقبل الرهبان بعضهم على بعض بالقول فيما بينهم: تأملوا هذا الغار من العمل بأى شئ قد جاء يخدع النصارى، وانظروا هل يكون له بخت. وربما جاء الراهب إلى الجاثليق بمثل هذا لينفق عنده،، فيقول له الجاثليق: عزمت على الهرب من العمل، انت عازق معناثا، فربما بكى، وقال له: أبونا ما يحل لك أن تقول لى هذا، فيقول الجاثليق: يا أخى ما ينبغى أن تعمل معى هذا فأنا أعرف بالصنعة، هبنا خدعنا غيرنا، بعضنا يعرف بعضاً والصنعة واحدة، وأنا عازق معناثا مثلك، فلا تبك.

ومثل هذا رحمك الله تجد كثيراً من القسيسين والرهبان، إذا رأوا راهباً أوجاثليقاً أوقساً أومطراناً قد ادعيت له المعجزات ونفق على النصارى، يقول بعضهم لبعض: انظروا بأى شئ نفق هذا على النصارى الجهال ونفذت حيلته فيهم واستوت له عليهم الرئاسة.

وكان متى بن يونس القس صاحب المنطق يقول عند مثل هذا: هذا بخت النغول[2]. وعلماء النصارى يسرعون إلى الإلحاد كما تقدم ذكره لك، ومما يدنيهم من هذا الأمر، أن موضوع النصرانية أن الآيات والمعجزات تكون فى عبادتهم فى كل عصر لا تنقطع، تدعى ذللك الملكية لعبادها، كما يدعيه باقى طوائفهم، ويدّعون المشاهدة فى كل زمان وأوان، مع إكفار بعضهم لبعض. وليس فيهم أحد رأى شيئاً من ذلك، وليس إلا الدعاوى التى تقدم ذكرها

(١) هكذا في الأصل. (٢) أولاد الزنا.

والذكران والأعياد، فيلحدون ويظنون بما يدعى لموسى وهارون وعيسى عليهم السلام بمثل ما يدعى الرهبان.

ومما يؤثر أن النصارى جلسوا فى ذكران جورجس، وما جرى عليه من القتل مرة بعد مرة وهو يعود ويقوم من قبره إلى الصومعة. فيقول قائل منهم: لو صدقنا أنفسنا لعلمنا أن هذا كذب لا أصل له.

المسيح صاحب جورجس ذاق مرّ الحديد مرة واحدة فما عاد ولا تعرض لمثلها، فكيف يتعرض لها جورجس وهو دونه فى الصبر والبصيرة، فأضحكهم.

وأكثر ما عند أهل البصائر منهم أن يقولوا: سبيلنا أن نسلم للرؤساء ونقنع فى الدين بالتقليد ولا نطلب فيه البرهان، فليس أمر الشريعة والبيعة من أمر الطبيعة فى شئ. وهذا شئ ألقاه لهم هؤلاء الرؤساء الذين يستأكلونهم ويسخرون منهم وأكثرهم ملحدة كما قدمنا.

وهم يريدون بالطبيعة ما يقوله أرسطاطاليس وأمثالهم من الملحدة: فى أن الشمس والقمر وسائر أجساد السماء لا يجوز أن تتصدع ولا تتفرق، ولا أن تكون حارة ولا باردة ولا رطبة ولا يابسة ولا حلوة ولا حامضة ولا ثقيلة ولا خفيفة، وما أشبه ذلك من جهالاتهم التى تزيد على جهالات النصارى أضعافاً مضاعفة. ويدعون أنهم قالوا ذلك ببرهان. وأن الربوبية والنبوات والشرائع لا يقوم عليها برهان فخاصة النصارى ورؤساؤهم أجهل من عامتهم بطبقات.

والقبط تبغض بنى إسرائيل لما جرى عليهم وعلى فرعون من موسى فلما غلبت الروم على بنى إسرائيل وملكت مصر والشام والجزيرة، وأخذت الناس بهذا الدين بالرغبة والرهبة كما بيّنا وكما ترى وتشاهد، أسرعت القبط إلى ذلك، وخالطت الروم قبائل العرب من غسان وغيرها بالشام فدعتها إلى النصرانية، وبذلت لها الملك، وذكروا لهم دين المسيح وما يذهبون إليه من المعجزات التى ذكرناها، فسهل ذلك عليهم وهم كانوا عباد أصنام، فلم يبعد عليهم ذلك.

وقد صار فى هذه الأمة من يسلك هذا السبيل، ويؤكد دعواه بادّعاء الآيات والمعجزات والتواريخ والأيام، كادّعاء الحنبلية أن المعتصم بن الرشيد بما ضرب أحمد بن حنبل انحل عنه مئزره فخرجت كف فشدت مئزره.

وأن المعتصم وتلك الجماعة من القضاة والفقهاء والمحدثين لما رأوا ذلك راعهم وخلى المعتصم ضربه وخضع له وسأله بعد أن اعتذر إليه أن يحله فأجابه أحمد إلى ذلك، فخلع عليه وكرمه، وسأله أن يدعو له، وصرفه إلى منزله. ويدّعون لمعروف الكرخى وغيره ما قد علمت.

وادّعى آخرون أن رسول الله ﷺ استخلف على أمته رجلاً بعينه، وأنه أمته أجابته إلى ذلك وأظهرت السمع والطاعة، فلما قبض رسول الله ﷺ عطلوا ذلك كلهم، وارتدوا بأسرهم، وهذا قول الكاملية، ورئيس هذه المقالة أبو كامل معاذ بن الحصين النبهانى الكوفى. وقال هشام بن الحكم: قد ارتدوا كلهم إلا نفراً يسيراً، فإنهم أقاموا على اعتقاد هذا النص بضمائرهم وقلوبهم دون الإظهار بألسنتهم. قالوا: وهذا اليوم هو يوم الغدير، وحين ظهروا هذه الطائفة فى سنى نيف وخمسين وثلثمائة للهجرة عيّدوا فى ذلك اليوم ليؤكدوا كذبهم فى المهاجرين والأنصار فى أنهم ارتدوا. فاعرف ذلك.

والحنبلية والأمامية يحتجون بكثرتهم وأن مقالتهم قد غلبت على البلدان، وقد تقدم لك القول: أن الكثرة لا تدل على صحة النحلة، وإنما يدل عليها قيام الحجة، وإن قلّ عدد العاملين. بل لو كان القائل بالحق رجلاً واحداً، وقامت له الحجة، لكان أولى بالحق ولو خالفه جميع أهل الأرض. وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه: إن الحق لا يعرف بالرجال، ولكن اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله.

وقد كانت الحنبلية تحتج على خصومهم من الرافضة بالكثرة وتقرع الرافضة بالقلة، والرافضة تحتج بأن الله قد ذم الكثرة ومدح القلة وتتلو ما فى ذلك من القرآن فلما اتفقت لهم منذ سنى ونيف وخمسين وثلثمائة للهجرة احتجوا بالكثرة، وكتب رؤسائهم القدماءمملوءة بذكر ذم الكثير ومدح القليل، فاعرف ذلك.

ثم يقال للإمامية: إن النص الذى ادعيتموه من النصوص التى تلزم الكافة من الرجال والنساء والأحرار والعبيد والمسافرين والمقيمين والخاصة والعامة، لو كان له أصل لكان العلم به عند كل عاقل سمع الأخبار كالعلم بأمثاله من نصوص الكافة، وإن لم يعرف اليوم الذى كان فيه ولا المكان ولا عين اللفظ به، لأن قول النبى ﷺ: فلان خليفتى عليكم وحجة الله بعدى عليكم، كقوله: أنا رسول الله عليكم، وحجة الله عليكم، وقد عرف هذا من نصوصه ﷺ كل عاقل سمع الإخبار ممن صدقه أو كذبه، وإن لم يعرف الوقت الذى قال هذا فيه. ولا المكان، فإن عرفه كان من الفضل. وهذا بيّن كاف.

بل نصوص الإمامة والرئاسة الصحيحة منها والفاسدة إذا وقعت حصل العلم بها عند كل من سمع ذلك الخبر، ألا ترى أن نص عمر على علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنهما بالإمامة والخلافة فى الشورى قد عرفه كل من سمع الأخبار، وكذا نص أهل المدينة عليه بعد عثمان، ونص أبى بكر على عمر، ونص الصحابة على أبى بكر، ونص معاوية على يزيد، ونص مروان على عبد الملك، ونص عبد الملك على ابنه الوليد، ونص المنصور على المهدى.

فلو كان النبى ﷺ قد نص على رجل من أصحابه بأى لفظ كان لكان العلم به أقوى من العلم بهؤلاء، لأنه ليس فى هؤلاء أحد يعتقد فى نصه وفرضه ما يعتقده المسلمون فى نصوص رسول الله ﷺ وأوامره، وفى فقد العلم بذلك دليل على أنه أمر لا أصل له بوجه من الوجوه. وبمثل هذا يعلم أن أمير المؤمنين ما نص على ابنه الحسن رضى الله عنهما، وبمثل هذا نستدل على فساد قول أهل التناسخ وما يدعونه على العقلاء من الأكوار والأدوار، وبمثله يعرف بطلان قول الملحدة فى دعواهم فى النفس، ونزولها من عالم العقل إلى عالم الحس.

فإن قيل: إن هذا قد حسد الناس صاحبه، ونافسوه عنه، ودفعوه ومنعوه من استعماله وذكره.

قيل له: إنك لم تطعن فى الدلالة، بل تركت ذلك وادعيت دعوى أخرى فدعواك الحسد والمنافسة كدعواك النص، وهذا فيه أتم كفاية على بطلان قولك.

ثم يقال له: إن هذا الدليل قد دل على أن ليس هناك من رسول الله ﷺ نص على رجل بعينه ينافس فيه أو يحسد لأجله، فلو أراد أصحاب رسول الله ﷺ أن يعصوا الله بتعطيل نصه على أمير المؤمنين لما قدروا على ذلك، ولا وجدوا سبيلاً إليه، لأنه شئ ما كان قط ولا وجد.

ثم يقال له: لو كان هناك نص حتى ينافس صاحبه أو يحسد لما قدح ذلك فى العلم به، ولما زادته المنافسة إلا قوة. ألا ترى أن أهل المدينة لما نصوا عليه بعد عثمان قد نافسه معاوية ودفعه عن الخلافة فما أثر ذلك فى العلم بعقد أهل المدينة عليه، بل زاده قوة ونشره وبسطه. وقد عقد أهل الكوفة للحسن بعد أبيه رضى الله عنهما، فدفعه معاوية ونافسه وزاحمه وغالبه وغلبه، فما أثر ذلك فى العلم بالعقد له بل زاده قوة. وقد ترشح سعد ابن عبادة الأنصارى للخلافة بعد رسول الله ﷺ، ورأى نفسه أهلاً لذلك، فدفعه أبو بكر الصديق عن ذلك ومنعه منه.

وقد ادعى مسيلمة النبوة فدفعه أبوبكر الصديق عن ذلك ومنعه وقتله، وادعى طليحة ذلك فمنعه أبو بكر ودفعه وأسره، فما أثر ذلك فى العلم بما ادعى هؤلاء ودعوا إليه بل زاده قوة وعرف الناس الدعوى والمدعى، والرافع والمرفوع، والمانع والممنوع، هذا وليس لسعد أحد يقول بإمامته ولا يخاصم فيها، ولا يضع فيها الكتب، ولا يسير فيها الأشعار، ولا يقيم فيها المناحات، وكذا ما ادعاه مسيلمة وطليحة.

فعلمت أن هذا شئ ما فعله رسول الله ﷺ ولا ادعاه، ولاادعاه أمير المؤمنين ولا دعا إليه، ولا كان أحد من الصحابة يتدين بذلك، ولا يذهب إليه حرٌ ولا عبد، ذكر ولا أنثى. يزيدك وضوحاً بذلك، أن أمير المؤمنين لما عقد له أهل المدينة كان قوم معه وقعد قوم عنه فلم يكونوا معه ولا عليه وكانوا فى المدينة معه، كأسامة بن زيد، ومحمد بن مسلمة، وسعد بن مالك، وغيرهم. ثم رجع قوم ممن كانوا معه وصاروا عليه، وهناك قوم لم يكونوا معه بل كانوا فى جميع الأحوال عليه، ويعلم بذلك كل عاقل سمع الأخبار.

وهؤلاء زعموا أن رسول الله ﷺ قام بهذا النص الشامل العام، وعرف الناس هذا الفرض وقدره عندهم، وأداه إليهم بحسب عمومه وشموله، وأعلمهم أنه شئ يلزم كل واحد منهم، من حر وعبد وذكر وأنثى ومسافر ومقيم وعليل وصحيح، وأنهم أظهروا له القبول والرضا، فلما مات ارتدوا كلهم ورجعوا عن هذا النص.

وقال هشام: ارتدوا كلهم إلا ستة نفر منهم، قلنا: فقد كان ينبغى أن يكون العلم بهذا عند كل من سمع الأخبار، وأن يكون أقوى وأقهر وأغلب من العلم بالذين قعدوا عن أمير المؤمنين فلم يكونوا معه ولا عليه، ومن العلم بالخوارج الذين كانوا معه ثم صاروا عليه، ومن العلم بما كان بينه وبين معاوية، ومن العلم بالتحكيم، وإلا فكنا نكون كمن قال: ترون الحصاة وهى على أبى قبيس، ولا ترون أبا قبيس، وهو مكان الحصاة لأن ذاك العقد من رسول الله ﷺ أعظم، وفرضه أعم وأشمل من النص على القبلة، وعلى صيام شهر رمضان، وعلى الجمعة وغسل الجنابة.

ألا ترى أن فرض القبلة يسقط عمن خفيت عليه الدلالة وعن المتأنف وعن المسافر فى التطوع ولا يسقط عنه اعتقاد الإمامة وطاعة الإمام، وقد تسقط الجمعة عن المسافرين والمرضى والنساء والعبيد ولا يسقط عن أحد منهم اعتقاد الإمامة وطاعة الإمام، وقد يسقط الصوم عن المسافرين والمرضى والحيض ولا يسقط عن أحد منهم اعتقاد الإمام وطاعة الإمام.

وقد يسقط الصوم عن المسافرين والمرضى والحيض ولا يسقط عن أحد منهم اعتقاد الإمام وطاعة الإمام فلو كان كما ادعوا لكان العلم بذلك عند كل عاقل سمع الأخبار أقوى وأقهر وأغلب من العلم بالقبلة وبصيام شهر رمضان، وبالجمعة وبغسل الجنابة. ومثله فى النصوص، نص النبى ﷺ على أنه رسول الله إلى الناس جميعًا.

ألا ترى أن العلم بذلك حاصل عند كل عاقل سمع الأخبار، ممن صدقه أو كذبه، فلو كان لهذا النص أصل لكان يعلمه كل عاقل سمع الأخبار وإن لم يقبله وإن لم يتدين به. كما علم اليهود والنصارى والمجوس أنه عليه السلام

نص على أنه رسول الله إليهم، وأن طاعته عليه السلام تلزمهم وتجب عليهم، وفى عدم العلم بذلك دليل على أن هذا شئ ما فعله رسول الله ﷺ ساعة قط، ولا كان منه فيه إشارة ولا إيماء بوجه من الوجوه.

ولسنا نقول: إنه لو فعله لقبلوه وعملوا به، بل نقول: كان العلم يحصل به عند كل من سمع الأخبار وإن لم يعملوا به، وإن أجمعوا على تعطيله كما أجمعوا على تعطيل إمامة سعد بن عبادة، ونبوة مسيلمة وطليحة فاعرف ذلك.

ومما يزيدك بياناً، أن النبى ﷺ قد نصّ على أشياء، فلما قبض ارتدت العرب عن ذلك بألوان الردة، فادعى مسيلمة النبوة فى ربيعة بأرض اليمامة وادعى مثل ذلك طليحة فى بنى أسد، ورجعت قبائل كثيرة من فزارة وقضاعة وغيرهم ممن هو معلوم عن الشريعة كلها، واستثقلوا ما حرّم عليهم من الخمر والزنا والربا والسرقة والغارة وغير ذلك، وارتد من بالبحرين وبنو يربوع وغيرهم لمنع الزكاة، وقالوا لأبى بكر: نشهد الشهادتين، ونقيم الصلاة، ونجاهد معك العدو؛ فإن أبيت ذلك لحقنا بالعدو وحاربناك.

وأقام أبو بكر والمهاجرون والأنصار على الإسلام، وجاهدوا المرتدين كلهم، فحصل العلم بذلك عند كل من سمع الأخبار. فلو كان لما ادعاه هؤلاء القوم أدنى إشارة، لكان العلم بذلك مثل العلم بهذه الأمور.

بل قد كان ينبغى أن يكون أقوى وأقهر، وإنما هذا شئ ادعاه أبو كامل وهشام بعد انقراض الصحابة، والتابعين وتابعى التابعين، وتابعى تابعى التابعين.

وعلى أن قوله ﷺ: «أنت منى بمنزلة هرون من موسى»، «ومن كنت مولاه فعلى مولاه»، وما أشبه ذلك مما يجعلونه حجة فى دعاويهم، ليس من ألفاظ النصوص والاستخلاف والوصايا فى لغة ولا فى عقل ولا فى شريعة، وإنما هى فضائل أدخلها هؤلاء فى هذه الدعاوى، وأنه أمر لا تقوم به حجة، ولا يجدون فيه حيله، فلجئوا إلى التعلق بهذه الفضائل، وقالوا: هى نصوص، فلو لم يدلك على فساد قولهم إلا تعلقهم بهذه الأشياء لكفاك وأغناك.

وقد رفع الله قدر رسول الله ﷺ أن تكون نصوصه ووصاياه بمثل هذه الألفاظ؛ يزيدك بياناً أنه عليه السلام قد نص على خلق كثير بالولاية والإمارة، فقال فى غزاة مؤتة للجيش الذى أنفذه: أميركم زيدٌ بن حارثة، فإن هلك فجعفر بن أبى طالب، فإن هلك فعبد الله بن رواحة. ومثل ذلك فى الأمراء ولعلهم نحو ألف أمير، ما فيه نص بهذه الألفاظ التى يدعونها هؤلاء.

وقد استخلف أبو بكر عمر بن الخطاب، وعمر من أهل الشورى، فليس فيهم من قال من كنت مولاه ففلان مولاه، وكذا سائر من عهد إلى أحد لم يذكر هذا اللفظ، وهم عرب وفصحاء، وفى دعوة الإسلام، وينتمون إلى رسول الله ويؤكدون عقودهم بكل ما يقدرون عليه مما هو مستعمل فى اللغة والشريعة؛ وهم لا يعرفون هذا اللفظ فى العقود،، وإنما هذه فضائل لا مدخل لها فى النصوص والوصايا والعقود، وقد قال رسو ل الله ﷺ فى رجال كثير ما هو آكد وأشف من هذا وأوضح.

ألا ترى أنه قال: «اقتدوا بالذين من بعدى: أبو بكر وعمر»، وقال ﷺ: «هما كالملائكة والأنبياء» فى قصة أسارى بدر، لما أشار عليه أبو بكر بالعفو عنهم واستبقائهم، وأشار عمر بقتلهم واستئصالهم، فقال رسول الله ﷺ: إن لأبى بكر وعمر إخوة من الملائكة والنبيين تشبههما، فأبو بكر كميكائيل فى الملائكة ينزل بالعفو والرأفة والرحمة، وهو كإبراهيم الخليل إذ يقول: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١)، وهو كالمسيح إذ يقول: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(٢). ومثل عمر مثل جبرائيل ينزل بالعقوبة والنعمة، ومثله فى الأنبياء كنوح إذ يقول: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾(٣) وكموسى إذ يقول: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾(٤). وإن الله ليشد فى هذا الدين قلوباً فيجعلها كالحجارة، ويلين فيه قلوباً فيجعلها ألين من اللبن. وشبه عثمان بلوط عليه السلام،

---

(١) سورة إبراهيم آية ٣٦ .
(٢) سورة المائدة آية ١١٨ .
(٣) سورة نوح آية ٢٦ .
(٤) سورة يونس آية ٨٨ .

فإنه لما أسلم آذته قريش، فهرب بدينه إلى أرض الحبشة ومعه إمرأته رقيه بنت رسول الله ﷺ ودعهما رسول الله ﷺ وعانق عثمان وقال: «إنه لأول من هاجر بدينه مع أهله بعد لوط»، وقال ﷺ: «من أحب أن يسمع القرآن غضاً كما أنزل فليسمعه من ابن أم عبد[١]»، وقال ﷺ: « رضيت لأمتى ما رضى لها ابن أم عبد، وكرهت لها ما كرهه ابن أم عبد[٢]»، وقال للأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع»، «ولو سلك الناس شعباً ووادياً وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووواديهم»، وقال: «الأنصار كرستى وغيبتى، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار».

وقال فى عمه العباس وفى تفضيله وتفضيل ولده الأقوال الكثيرة، وقال فى معاذ، وفى عبد الرحمن، وأبى عبيدة، وغيرهم من المهاجرين والأنصار ما هو معروف مكشوف لا يشك فيه؛ فقد كان ينبغى على ما يدعى هؤلاء أن تكون هذه الفضائل نصوصاً[٣]، إذ كانت الألفاظ على خلاف ما يعرف منها فى اللغة العربية.

وهؤلاء يقولون: انتم لستم من العرب ولا تعرفون العربية، فلهذا ذهب عليكم أن قوله: «من كنت مولاه فعلى مولاه، وأنت منى بمنزلة هارون من موسى» [فى الاستخلاف][٤].

قلنا قد فرغنا من هذا مرة وبينا أن هذا ليس من ألفاظ الاستخلاف البتة لا فى عقل، ولا فى لغة، ولا فى شريعة.

وأيضاً، فلو كان هذا من ألفاظ الاستخلاف لكان أولئك القوم الذين سمعوا هذا من رسول الله ﷺ قد عرفوا صدقه وقصده، فكان من بعدهم يعرف ذلك كما عرفوا وإن لم يكن من العرب ولا يعرف العربية، لأن مدار الأمر في ذلك وأشباهه على المعانى لا على الألفاظ.

ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما دعا ونصّ: أن رسول الله إلى الناس كافة،

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده وابن ماجه والحاكم.

(٢) رواه الحاكم عن ابن مسعود. وصححه السيوطى في الصغير جـ١ ص ٢٤.

(٣) في الأصل: نصوص. (٤) جملة في الاستخلاف ليست في الأصل.

وأنه حجة الله على كل ما يأتى إلى يوم القيامة، وأنه لا شئ معه ولا بعده، وجميع ما دعا إليه وحرمه من المحرمات، علم ذلك من قصده وما عناه وأراده كل عاقل سمع أخباره من العرب والروم والفرس والهند والقبط والأرمن، ممن يحسن العربية وممن لا يحسنها ولا يدور لسانه بها، ولا يحسن [التلفظ][1] بقول رسول الله ﷺ،ولا يحسن يتلفظ بشئ من المحرمات؛ كلّ قد عرف ذلك من قصده بإشارة الخرس لذين بلغتهم الدعوة من المؤمنين والكافرين. فيعلم بطلان هذه الدعاوى.

بل لو تكلم ﷺ بما لا يعرفونه فى اللغة، وقصد به معنى من المعانى، ونقلهم عما يعرفون فى لغتهم لعرفوا قصده ومراده. ألا ترى أن الوضوء فى اللغة إنما هو التنظيف، فجعله اسما لغسل هذه الأعضاء الأربعة فعرفوا قصده، وإن لم يكن قبل ذلك فى اللغة، والصلاة فى اللغة: الاتباع والدعاء، لا يعرفون إلا هذا، فجعل ﷺ هذا اسما للتوجه إلى القبلة بعد الوضوء مع الركوع والسجود، فعرفوا قصده وإن لم يكن ذلك فى لغتهم.

وكذا الزكاة، إنما هى فى اللغة اسم للزيادة والنماء فى المال، فجعله اسماً[2] لما يؤخذ من أموالهم، فعرفوا قصده، وعرف من بعدهم ممن بلغه خبرهم مثل ما عرفوا، فيعلم أن رسول الله ﷺ ما عنى بالأخبار التى يروونها عنه ما ظنوه وعنوه.

وقد دعا أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى نفسه، وفرض على الناس طاعته، وابتلى بمن خالف، وبمن قعد عنه، وبمن ضلله، وبمن ارتد عنه من أصحابه، فما احتج على مخالفيه إلا بالاختيار، وأن طاعته قد وجبت لأنه قد بايعه الذين بايعوا أبا بكر، وعمر وعثمان. وقد احتج لنفسه، واحتج عنه ولده وشيعته وأهل بيته، وكاتب معاوية وراسله. ثم صار إلى الشام، واحتج على أهل الشام وأهل البصرة وأهل النهر هو وأصحابه؛ فما احتجوا فى مكاتبة ولا فى مراسلة ولا فى مشافهة، إلا بأنه قد بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان وأنه لا تحل مخالفته كما لم يحل مخالفتهم، ولا يذكرون فى احتجاجهم كما

---

(١) ليست الأصل.

(٢) في الأصل: اسم.

يذكر هؤلاء من الآيات ولا من الأخبار، ولا قوله «من كنت مولاه»، ولا «أنت منى بمنزلة هرون من موسى»، مما يحتجون به. فلو كانوا هؤلاء شيعته رضى الله عنه لسلكوا سبيله واقتفوا أثره؛ فقد بلى من هذا الأمر، ومن خلاف الناس عليه، ومن رجوع أصحابه عنه ، ومن إكفارهم له، ما لم يبتل به أبو بكر، ولا عمر، ولا عثمان، ولا أحد من أهل الشورى والبدريين.

وقد بالغ فى إقامة الحجة عليهم وكلهم من أهل القبلة وأهل الصلاة وإلى القرآن يرجعون، وبأحاديث رسول الله ﷺ يحتجون، والحجة من قبله يطلبون؛ فما قال قط ولا ولده ولا من يحتج عنه من أهل بيته: أن رسول الله ﷺ قد قال فىَّ: «من كنت مولاه فعلىٌ مولاه» ولا «أنت منى بمنزلة هارون من موسى»، وهذا نص منه على استخلافى، وهذا شئ تأويله النص، وباطنه الاستخلاف. ولا قال هو ولا أحد من أصحابه ومن يحتج له: لم تكفروننى وتضللونى والنبى قد استخلفنى ونص علىّ وشهد بعصمتى، وأنى لا أخطئ ولا أزل ولا أضل ولا يقع منى معصية لله. وهو رضى الله عنه أعلم بدين الله وبالحجة، وأفقه وأبصر وأشجع، فلو كان لذلك أدنى إشارة من رسول الله ﷺ لاحتج بها وبيّنها قبلوا ذلك منه أو لم يقبلوا. وفى هذا أتم بيان وأوضح حجة.

واعلم، أن هؤلاء يحتجون منذ زمن ابن الراوندى: أن رسول الله ﷺ نص عليه نصاً مكشوفاً لا يحتمل التأويل، فقال: علىّ بن أبى طالب الخليفة عليكم من بعدى، وقال لهم: «سلموا عليه بإمرة المؤمنين»، وأن رسول الله ﷺ قام فيه فى مقام بعد مقام، وفى عام بعد عام، نحو مائة مقام مذ بعثه الله بمكة والمدينة والسفر والحضر، إلى أن توفاه الله.

فينبغى أن لا تكلمهم إلا فى هذا النص المكشوف المعروف، ونقول لهم، المصير إلى الأمر المكشوف والحجة الواضحة أولى بنا وبكم من المصير إلى المشكل الملتبس الذى يحتمل التأويل، فإن الكلام عليهم حينئذ يكون أوضح وأقصر؛ فيجرى هذا مثل نصه عليه السلام على النبوة.

وهم يفرون شديداً من هذا النص المكشوف مع من يعلم ويحصل، فإن ابتليت منهم يمن يقول: لا أتكلم فى النص المكشوف بهذا، فقل له: إن كنت لا

تتكلم فيه فسلم لنا بطلانه وكذب من ادعاه وادّعى نقله. فإن قال: لا أسلم قيل له: ليس يخلوا من أن يكون حقاً وصدقاً فينبغى أن تصير بنا إليه، أو كذباً وباطلاً فينبغى أن تتبرأ منه وتخطئ من احتج به.

فإن قال: كذلك أفعل، قيل له: فهذا شئ قد ادّعته أمم عظيمة، وادّعت معرفته ونقله. فإن قال: هم كذاك يدّعون، وإنما وضعه لهم واحد من الناس وقال لهم: إن هذا قد قاله النبى ﷺ ونقلته عنه الأمم فأحسنوا به الظن وصدقوه وإن كان لا أصل له.

قيل له: وكذلك ما تدعيه أنت من التأويل فى الآيات والأحاديث التى تحتج بها، ما أراد رسول الله ﷺ ولا أمير المؤمنين بها ما تعنية أنت وتعتقده، وإنما هى فضائل، ولكن هشام بن الحكم قال هى نصوص والنبى ﷺ أراد بها الاستخلاف؛ فأحسن به قوم الظنّ فقبلوا ذلك منه واعتقدوه وادّعوا أنهم ومن قبلهم قد نقل ذلك عن رسول الله ﷺ، وليس هناك شئ ينقل ولا يكتب، ولكنهم قوم سمّوا اعتقادهم نصاً ودعواهم نقلاً، كما يدعى اليهود أن موسى عليه السلام نص لهم على تأبيد شريعته؛ وكما يدعون هم والنصارى من الصلب وكما يدعى النصارى خاصة قيامه من قبره وأنه عليه السلام أقام معهم أربعين يوما ثم صعد إلى السماء وهم يرونه؛ وكما ادعوا أن هيلانة الحرانية وقع إليها الخشبة[1] التى صلب عليها المسيح مع خشب غيرها فلم تعرفها وأشكلت عليها فامتحنت ذلك بجنازة مرت بها فجعلت تضع عليها خشبة بعد أخرى من خشب المصلين، فلم يقم الميت إلا بآخر خشبة.

قالوا: فعلمت أنها هى الخشبة التى صلب عليها المسيح. فقالوا: وقد شهد هذا الأمم الكثيرة ببيت المقدس من اليهود والروم غير أن اليهود كتموا ذلك، ويسمّون هذا اليوم: عيد الصليب؛ ويوم قيام المسيح من قبره بزعمهم عيد السلامة، ولهم مثل ذلك كثير، وهذ أمر لا أصل له، وإنما هو موضوع لهم أحسنوا به الظن كما أصاب هؤلاء الرافضة من أصحاب النص.

---

(١) في الأصل: الصليب، وقد صححها المعلق بالخشبة.

على أن هشام بن الحكم قد أقر بذلك فقال: قد أردكت الشيعة فى الصدر الأول وهم يتولون أبا بكر وعمر وعثمان ويصوبونهم، ويقولون: هؤلاء ما دفعوا أمير المؤمنين عن حقه ومقامه، وإنما دفعه المنافقون الذين كان القرآن يهتف بهم فنظر هؤلاء فإذا ليس أحد أحق بالإمامة بعد على منهم، فقاموا ذلك المقام بحق.

وقال هشام بن الحكم: ومنهم من قال: لما رأى الوصى على بن أبى طالب المنافقين قد أزالوه عن موضعه قدم أبا بكر واستخلفه ليكون بمكانه إلى أن يتمكن فيزيله.

قال هشام: وهذا كله تلزيق وتلفيق دعاهم إليه الجبن من الإقدام على التبرؤ من أبى بكر وعمر وعثمان والمهاجرين والأنصار ولو عرفوهم كما عرفتهم أنا لأقدموا على البراءة منهم[1].

وقد ذكر هذا أيضاً ابن الراوندى فى كتابه « لإمامة» الذى نصر فيه قول الرافضة فى البراءة من المهاجرين والأنصار وحكاه عن هشام.

فهذا ما أقر به الخصم فكيف ما لم يقر به؛ ولو لم يقر به لعلمنا أن الأمر كذلك. وهشام إنما كان فى أيام بنى العباس وهلك فى دولة هارون الرشيد، لتعلم أن الذى ادّعى النص وجرأ الناس على شتم أبى بكر وعمر وعثمان والمهاجرين والأنصارهشام بن الحكم[2]. وهو ابتدأه ووضعه، وما ادعى هذا النص والاستخلاف أحد قبله.

ولو كان هشام من أهل القبلة، لما كان دعواه ودعوى مائة ألف معه مثله حجة، فكيف به وليس من أهل القبلة، وهو معروف بعداوة الأنبياء، وقد أخذ مع أبى شاكر الديصانى صاحب الديصانية وكان معروفاً به وبصحبته، فادعى

---

(١) كتب الناسخ بالهامش: «لعن الله ناقل هذا القول وقائله، حيث كانوا يطلبون تغريب شموس الدين وإطفاء أنوار الإسلام .عذبهم الله تعالى وأقوالهم، وأطفالهم وآثارهم .. آمين . آمين . آمين.

(٢) هشام بن الحكم هو أول من ابتدع سب وشتم الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

أنه من الشيعة، فخلصه بعض أصحاب المهدى حين ادعى أنه يتشيع لبنى هاشم فلم يصلبه مع أبى شاكر.

وقد ذكر العلماء بالمقالات بمذهب الديصانية، وذكره الحسن بن موسى النوبختى فى كتابه «الآراء والديانات» حين نقض عليه مذهبه فى أن الله جسم ونور يتحرك؛ فقال له الحسن: هذا مذهب المانوية نعوذ بالله من موافقتهم. وإنما ذكرنا الحسن بن موسى، لأنه من الرافضة.

وقد حكى عن هشام أيضاً أبو عيس الوراق، وابن الراوندى، وأبو سهل بن نوبخت، وهؤلا كلهم رافضة.

والذين حكى هشام عنهم من الشيعة أن المنافقين أزالوا أمير المؤمنين عن مقامه، فقد غلطوا أيضاً، فإنه قد بيّنا أن رسول الله ﷺ ما كان منه نص فى ذلك فيزيله أحد من الناس.

وأيضاً، فإن الغلبة بعد موت رسول الله ﷺ لم تكن للمنافقين وإنما كانت للبدريين والمهاجرين والأنصار، الذين يعتقدون نبوته ﷺ، وصدقه، وإقامة نصوصه، وإحياء شريعته، وإذلال عدوه، وإعزاز وليه، وهم الذين ردّوا إلى الإسلام من ارتد من العرب، وغزوا من أعداء رسول الله ﷺ ملوك الفرس والروم والهند والترك وسائر الأمم المشركين وأدخلوهم فى دينه وأدخلوا بلدانهم فى ممالكه ﷺ، وإنما يدعى أن الغلبة كانت للمنافقين من لا علم له ولا تحصيل عنده.

وكان هشام يقول: لعمرى إن على بن أبى طالب رضى الله عنه ما احتج فى إمامته بنص النبى ﷺ ولا بوصيته فى الإمامة إليه، وأنه كتم ذلك خوفاً من المهاجرين والأنصار، فأمسك وسكت.

قيل له: قد فرغنا من هذا، وبينا أن ليس هناك نص ولا وصية ولا شئ يكتم ولا ينقل.

وأيضاً، فإن أمير المؤمنين ما سكت ولا أمسك بل تدين بالاختيار وأظهره وجعله الحجة على من خالفه وقال: وجبت طاعتى وإمامتى لأنه بايعنى أهل دار الهجرة الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، فوجبت طاعتى وإمامتى كما

وجبت طاعتهم، وحرمت مخالفتى كما حرمت مخالفتهم، وأعاد هذا وأبداه فى خطبه وكتبه وجعله الحجة؛ فمتى سكت وأمسك.

وأيضاً، فلم يكن سلطان أبى بكر وعمر وعثمان وعلىّ سلطاناً يخاف فيه محق ولو كانت إمرأة أرملة ذمية، فضلاً عن غيرها. ألا ترى أن الأنصار قد تكلموا مع سعد بن عبادة والعباس وبنى هاشم وأبى سفيان وبنى عبد مناف فى الإمامية بما أرادوا، وكلموا أبا بكر ونابذوه إلى أن أقام الحجة. وعارضوه فى إنفاذ جيش أسامة بن زيد وقالوا له: ليس علينا فى هذا الوقت من الروم خوف، ولا حاجة بنا إلى غزوهم فى هذا الوقت والعرب قد ارتدت وأحاطت بنا، فدع هذا الجيش يكون لنا، فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ يقول والوحى ينزل عليه: أنفذوا جيش أسامة ونقول نحن لا نرى ذلك، برأينا؛ فقال له قوم: فأقم على جيشه أميراً مكانه أحسن منه فإنه حدث وفى جيشه المشيخة والكهول، فقال: أيوليه رسول الله ﷺ وأنزعه أنا، لا يحل هذا.

ولما جاء الذين منعوا الزكاة ونزلوا على المهاجرين وقالوا لهم: قولوا لخليفة رسول الله ﷺ يعفينا من الزكاة فإنا نقيم الصلاة ونجاهد معكم، فإن لم يفعل صرنا مع العدو وحاربناكم. فمشوا إلى أبى بكر رضي الله عنه، وسألوه أن يقبل ذلك منهم، فقال: لا أفعل، ولا يحل لى هذا ولا لكم، قالوا: فنحن فى قلة والعرب قد ارتدت، فمن نقاتل ومن ندع؟ لا طاقة لنا بقتل الناس كلهم، فاقبل منهم إلى أن تنكشف هذه الفتن فإنا قد خفنا على المدينة وعلى أثقال رسول الله ﷺ وأثقالنا.

فقال: ما كنت لأفعل ولو بقيت وحدى، إنى إن قبلت رأيكم نقضت الإسلام عروة فعروة. أيها الناس، إن مات رسول الله نبيكم ﷺ، وكثر عدوكم، وقل عددكم، ركب الشيطان هذه منكم؛ والله ليظهرن الله دينه على الدين كله ولو كره المشركون، وليستخلفكم فى الأرض كما وعدكم، وتلا قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1] وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

(١) سورة التوبة آية ٣٣، وسورة الصف آية ٩ .

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[١]، وقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

وقالوا له: أفنقاتلهم وتقتلهم وقد قالوا: لا إله إلا الله؟ قال: إنها غير مقبوله منهم لأنهم منعوا الزكاة؛ قالوا: فنقتلهم على ابن لبون وعلى الحقة والشاة وقد قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم[٣]» فقال أبو بكر فإن فيه: إلا بحقها، وهذا من حقها. فطال ما بينهم فى ذلك، فحين أقام الحجة صاروا إلى قوله.

ولما فتح الفتوح ووانته الأموال من كل وجه سوَّى بين الناس فى العطاء، فعارضوه فى ذلك، وقالوا: سويت بين من أسلم الآن وبين من سبق وبين من نصر وهاجر، فقال: هؤلاء عمال الله وأجورهم على الله، وإنما الدنيا بلاغ؛ والله لو شئتم معشر الأنصار أن تقولوا: طردتم فآويناكم وخذلتم فنصرناكم وأفقرتم فواسيناكم، وإنى لأجد مثلنا ومثلكم فى قول طفيل الغنوى: جزى الله

عنا جعفراً حين أشرفت ... بنا فعلنا فى الواطئين فزلت

أبوا أن يجلونا ولو أن أمنا ... تلاقى الذى يلقون منا لملت

فذو الحظ موفور وكل مقسم ... لدى حجرات اثفات أظلت

وراسلته فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعليها وقالت: ما بالك خليفة رسول الله ورثت رسول الله دوننا، فقال: ما ورثته، قالت: فأين نصيبنا من أمواله بخيبر وفدك، فقال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هذا المال لمحمد وآله

---

(١) سورة النور آية ٥٥ . (٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة عن أبى هريرة وهو حديث متواتر وصححه السيوطى. راجع الجامع الصغير جـ١ ص ٦٧.

حياته، فإذا مات فهو إلى والى الأمر بعدى، فإن كان معك من رسول الله ﷺ عهد صرت إلى قولك، والله ما أريد شاهدًا معك غيرك، فرجع الرسول فقال: تقول لك فاطمة: لا والله ما معى عهد من رسول الله ﷺ، ولكن رسول الله دخل علينا وهو يتلو : ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[1]، فقال: ابشروا آل محمد بالغنى.

قال أبو بكر: إن كان بكم الغنى ولكم الغنى. ثم صار إليها أبو بكر وسألها عن عهد من رسول الله ﷺ، فقالت ما معى أكثر مما قلت، فقال: إذا لم يكن معك عهد من رسول الله ﷺ فما كنت لأدع ما أسمعه من رسول الله ﷺ بقول أحد. وكلمه العباس فى ذلك وطالبه الحجة، فذكر ما سمعه من رسول الله ﷺ وقال : أنا أوجه هذا المال فى الوجوه التى كان رسول الله ﷺ يجعلها فيها، ورد أبو بكر هذه الأموال إلى على بن أبى طالب وقال له: افعل ما كان رسول الله ﷺ يفعله. وكذا فعل أمير المؤمنين رضى الله عنه حين صارت إليه الخلافة بعد عثمان، وهو فعل الخلفاء الأربعة وجميع الصحابة والتابعين بعدهم ، فاعرف ذلك.

وعارضوه حين شاورهم فى استخلاف عمر، فقال له قوم: هو الخيرة بعدك غير أن فيه شدة وهو مهيب، وفى الناس الأرملة والضعيف وذو الحاجة، فاستعمل علينا من هو ألين منه كنفاً؛ وكانت لهم معه فى ذلك مطالبات ومراجعات وعمر يسمعها ويعلمها، إلى أن قال لهم أبو بكر: إنما أستعمله عليكم لأنه أقواكم عليكم وأنفعكم لكم وأردكم عليكم، شهيدى الله: ما أردت إلا ذلك، وقد خاب من تزوّد من أعمالكم بظلم، إن عمر ليس ولدى ولا من أهلى، وإنما أردت الخير لكم؛ وإنى قد رمقته لكنت إذا لنت فى الشئ أرانى فيه الشدة، وإذا أشددت أرانى فيه اللين، ولو قد وليكم لان واشتد. ثم قال:إن عمر لا يأنف من التعلم، فحين أقام الحجة سلموا ورضوا. ثم عهد تلك العهود المعروفة، وكم من شئ قد عارضوه فطالبوه بالحجة مما هو أكثر من هذا.

---

(١) سورة الحشر آية ٧ .

ومعارضتهم لعمر فى أمر السواد، وفى فتوح الشام، وفى تأمير الأمراء، وفى الفتوى والقضاء؛ حتى كان يعارضه فى ذلك المرأة والبدوى فضلاً عن المهاجرين مما هو معروف إلى أن يقيم الحجة أو يرجع إلى قول من معه الحجة.

وعثمان، فقد عارضود فى إتمام الصلاة بمنى، وفى الحمى، وفى الحكم بن أبى العاص، وفيمن ولاه من أهله، وأخذوه بإقامة الحدود عليهم، وبإقامة الحجة فيما يأتيه بما هو معلوم.

وعلىّ رضي الله عنه قد عارضوه فى تولية أقاربه وفى الحكم الذى أنفذه بما هو معلوم؛ حتى كان يجرى على هؤلاء الخلفاء الأربعة من صغار رعيتهم فى الفروع وفى صغار الأمور ما هو معروف، فكيف يجوز أن يتوهم عاقل تدبر أمورهم وعرف سيرهم، أنه قد كان أقل من الناس فخافهم أن يذكر لهم الحق، أو ينطق بحضرتهم، أو يتوقى أن يذكر لهم عهداً من رسول الله ﷺ أو وصية لرسول الله ﷺ.

هذا لا يظنه إلا أجهل الناس بهم وبأحوالهم، أو عاقل يقيس أحوالهم بأحوال من رأى وسمع من الجبابرة وولاة الجور، فاعرف هذا.

وإنما القى هذا إلى الإمامية فيما صنفوه لهم قوم من أعداء الأنبياء ادعوا التشيع وتستروا بالرفض، لينفروا الناس عمن شيد الإسلام وبناه ونصر الرسول فى حياته وبعد موته، ليخرجهم من الإسلام من حيث لا يشعرون. وكما صنفوا فى تهمة المهاجرين والأنصار فقد صنفوا أيضاً فى تهمة الأنبياء وشتمهم وتكذيبهم، وأنهم قد كانوا يتكلمون بالكذب وبالبهت بحضرة أممهم فيسكتون عنهم خوفاً منهم.

وهذا فعله بالأنبياء عمر بن زياد الحداد، وأبو الوراق، وأبو الحسين بن الراوندى، وأبو سعيد الحسن بن على الحصرى، وجابر بن حيان، وهشام بن الحكم، وأمثالهم، كما قد عرفه العلماء، وكل هؤلاء الذين طعنوا على أبى بكر وعمر والمهاجرين والأنصار لفضل غيظهم على رسول الله ﷺ، ولأن هؤلاء

قاموا بأمره ونصروه فى حياته، وقاموا بدينه بعد وفاته وبثوه فى مشارق الأرض ومغاربها، وقتلوا أعداءه ﷺ من العرب ءملوك الفرس وملوك الروم وملوك القبط وملوك الهند والترك وأمم الشرك و دخلوا أممهم فى دينه ﷺ.

فهذا ذنبهم عند علماء الرافضة، ولكن عوامهم لا يفطنون، ولهذا قالت العلماء حين حدثت هذه البدع: لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فإنهم أسلموا من خوف الله وأسلم الناس بعدهم من خوف أسيافهم. ثم يقال لهؤلاء: قد وجدنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه مكاشفاً بالحق فى جميع أحواله، لا يخاف من أحد من المخلوقين وإن كان وحده والناس عليه؛ فإن رسول الله ﷺ خلّفه بمكة وهى إذ ذاك دار كفر فما خافهم ولا فارقهم مع وحدته وتفرده، وقد كاشف معاوية وهو فى مائة ألف سيف، ولعنه بلسانه، وقنت عليه فى صلاته، وضربه بسيفه، وبين له وإن علم أنه لا يقبل.

وقد كاشف الخوارج وبرئ منهم وأن علم أنهم لا يقبلون وهم كانوا أصحابه وبهم صال على عدوه واستطال، وأقام على مخالفتهم وإن فرقوا عنه أصحابه وإن قتلوه، فما قاربهم فى كلمة، لأنهم قالوا له: إن تبت من الحكومة رجعنا لك كما كنا وقاتلنا عدوك، وإن أبيت أقمنا على حربك وقاتلناك حتى نقتلك أو تقتلنا، فقال لهم: انتم دعوتمونى إلى الحكومة، قالوا: صدقت فقد تبنا وما كان لنا أن ندعوك وما كان لك أن تجيبنا ولا تحكم الرجال فى دين الله، فقال: بل كان لى أن أحكم، فلو كان ذلك معصية لما أجبتكم إليه، ومن زعم أن الحكومة ضلال فهو أضل، ومن زعم أنى ارجع عنها فقد كذب.

فصبر رضى الله عنه على ذلك ولم يقاربهم فى لفظة تحتمل التأويل، لأنه لو قال أنا تائب إلى الله من كل ذنب وخطيئة وهو يعنى غير الحكومة، لكان اللفظ يحتمل، ويتلافاهم ويردهم ويكون بهم فى عسكر عظيم كما كان قبل رجوعهم عنه ويصول بهم على عدوه. فلم يفعل، وأقام على حربهم، إلى أن قتلهم وقتلوه رضى الله عنه؛ فما لأن فى كلمة تحتمل التأويل، ليبين للأولين والآخرين أمر الدين، فما داراهم ولا قاربهم مع حاجته إليهم وخوفه من

أسيافهم، فهو ما كان يخاف الجبابرة والأحياء الذين هم فى عساكر ويخافهم الناس فكيف يخاف من أبى بكر وعمر وعثمان فى حياتهم وبعد مماتهم، وهم فى حياتهم وسلطانهم ما خافهم محق قط، وإن كان عبداً أو إمرأة أرملة ذمية، وإنما يقول هذا لمن لا يعرف علياً ولا أبا بكر ولا عمر ولا عثمان؛ فعليك بالمعرفة فإنها حياة، والذهاب عن طلبها موت، وقد علم أهل المعرفة والعناية أن علياً كان فى زمن أبى بكر وعمر وعثمان فى علو الكلمة ونفاذ الأمر مثله فى سلطانه، وأنه كان فى سلطان هؤلاء أنفذ أمراً وأعلا قولاً وأبسط لساناً منه فى زمن رسول الله ﷺ وفى حياته.

ولا فرق بين من ادّعى أن علياً كان يخاف من هؤلاء الخلفاء أو أن رسول الله ﷺ كان يخافهم أيضاً، وأنه من خوفهم كان يشهد لهم بالجنة ويزكيهم. وهذا لازم لهم، بل هو قول الرافضة لأنهم قالوا: إن على بن أبى طالب حجة الله على خلقه كما كان رسول الله ﷺ، وأنه معصوم كعصمة الأنبياء وقالوا مع هذا: قد زكى أبا بكر وعمر وعثمان، وصاهر بعضهم، وصلى خلفهم، وحج معهم، ودخل الشورى وعمل بالاختيار، وصلى خلف صهيب كما وصى عمر، وأطاع عمر كما وصى أبو بكر، وعمل لهم أعمالاً كثيرة، وأظهر تزكيتهم، ومدحهم بإيمانهم وإن كانوا كفاراً، كل هذا خوفاً منهم وممن بعدهم من شيعتهم فما تبين الحق إلى أن خرج من الدنيا.

قلنا: فإذا كان هذا هو الحجة والمعصوم والقائم مقام الرسول فعل هذا بغير حق، لم نأمن أن يكون كل من صاهر النبى ومدحه ونص عليه وشهد له بالجنة وأمر الناس بطاعته أن لا يكون هذا حاله، وأنه فعل مثل فعل هذا الحجة، وهذا ما لا حيلة لهم فيه، وفيه فساد الديانات كلها، وإلى هذا قصد هشام ابن الحكم حين وضع هذه البدعة فاعرف ذلك.

باب آخر

قد علمت الحال التى أبداها رسول الله ﷺ حين ادعى النبوة ودعا إلى الله، فإنه أكفر الأمم كلها وتبرأ منها وأسقطها وأسخطها وأغضبها، فما اعتصم بمخلوق كما تقدم ذكر ذلك، فكانت العرب واليهود والنصارى وقريش وغيرهم يداً واحدة فى عداوته وطلب عثراته والحرص على قتله، وهو بينهم على وحدته، فيصرفهم الله عن ذلك بوجوه لا هو يعرفها ولا هم، وبوجوه يعرفها ويعرفونها. غير أنهم قد كانوا ينالونه بالشتم والضرب ويلقونه بالأرض ويدوسونه بأقدامهم ويلقون الفرث والتراب على رأسه.

ثم صار الواحد بعد الواحد والنفر بعد النفر يجيبونه وهذه حاله، فيلقون معه الضرب والهوان، ويعذبون ويجاعون ويحصرون فى الشعاب ومنهم من يقتل، ولا يمكنهم المقام معه بمكة فيهربون بأديانهم، ويعبرون البحار، والنبى ﷺ مقيم بمكة معه أبو بكر ونفر يسير.

وكان يخرج فى المواسم إلى العرب، ويتلو القرآن ويدعو إلى الله، ويقيم الحجة، وقريش من أهل بيته يخرجون إلى العرب يقولون لهم: لا تسمعوا منه فإنه ساحر كذاب ونحن أهل بيته وأعرف به، ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1] ويمنعونه ﷺ من البيان والاستيفاء، وربما شغلوه بالضرب، يتولى ذلك منه عمه أبو لهب وأشباهه، فيقول له العرب: أهلك أعلم بك، ما نجيبك، فاذهب عنا فقد عاديتنا وخالفتنا وأسمعتنا فى آلهتنا وآبائنا وأنفسنا ما لا نحب.

وتستجيب له القبيلة بعد القبيلة من قبائل طيئ وقبائل أسلم، وتسامعت به قبائل عبد القيس من ربيعة فأتوه وسمعوا منه وأسلموا طوعاً بهذه الشرائط، وتسامعت به بنو قيلة من قبائل الأوس والخزرج فأتوه وسمعوا منه القرآن والحجة فأسلموا، ورجعوا إلى قومهم فجاؤوا بهم إليه عاماً بعد عام فأسلموا وبايعوه، ورجعوا إلى قومهم وهم قبائل كثيرة فأسلم أكثرهم طوعاً بهذه الشرائط.

---

(١) سورة فصلت - آية ٢٦.

وهاجر أصحابه إلى المدينة بعد الذين هاجروا إلى أرض الحبشة، وقال الأنصار للنبى ﷺ: إنا كثرة ونمنع منك ونجاهد الأمم كلها معك ونطيعك فى المحيا وبعد الممات ولا تأخذنا فى الله لومة لائم؛ فأخذ ذلك عليهم وانصرفوا. ثم صار إليهم مع أبى بكر الصديق رضي الله عنه، وصار فى عز ومنعة وفى عسكر، ودعا إلى الله، وكانت له غزوات ووقائع.

وما زال أمره يقوى حتى ذلت اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وهم قبائل كثيرة، حتى أدوا إليه الجزية، وحتى صار من لا يعتقد نبوته فى جزيرة العرب لا يمكنه إظهار ذلك لكثرة المهاجرين والأنصار وأمثالهم ممن يعتقد نبوته وصدقه، وحتى غزا الروم غزاة تبوك وهى آخر غزواته فى ثلاثين ألفاً غير من خلفه من عماله وأصحابه فى جزيرة العرب وهى[1] أوسع من بلاد الروم.

وقبض ﷺ بالمدينة والغلبة فيها لمن يعتقد صدقه ونبوته من المهاجرين والأنصار وأتباعهم وأمثالهم، وهم الذين أحاطوا بأبى بكر وأقاموه خليفة وغزوا من ارتد عن دين رسول الله ﷺ حتى غلبوهم وأذلوهم وقتلوهم.

وغزوا فارس والروم وأمم الشرك وجميع أعداء رسول الله ﷺ وأذلوهم وقتلوا ملوكهم وأدخلوهم طوعاً وكرهاً فى دين رسول الله وفى شريعته وأدخلوا بلدانهم فى بلدان الإسلام، ولم يكن لهم شغل إلا إعزاز دينه، وإقامة نصوصه، وإحياء شريعته وبثها ونشرها وإظهارها، وإعزاز من أقام بدينه وإذلال من تعرض لأمانة شئ منه.

وكانوا بعد وفاته أشد بصيرة منهم فى حياته، لأنهم كانوا فى حياته يتكلمون على تدبيره، فلما مات، وصار الأمر إليهم، زاد تيقظهم، فرفضوا كل راحة، وهجروا كل لذه، وقصدوا لإقامة نصوصه وإحياء شريعته إلى أن يلقوا الأرض كلها بذلك؛ وما عندهم عمل أزكى من هذا.

وإنما يظن أن نصوصه كانت تبدل وأن كتابه كان يغير وأن بنته كانت

---

(١) في الأصل: ولها.

تلطم، الذى لم ينظر ولم يتدبر، وهو كمن قال أنه ﷺ كان بالمدينة يضرب ويشتم ويداس بحضرة المهاجرين كما كان بمكة، وهذا لا يظنه إلا الغاية فى الجهل بشأن المهاجرين والأنصار.

فإن قيل: أو ليس قوم موسى قد عبد قوم منهم العجل فى حياته وحياة أخيه هرون، فلم أنكرتم أن يرتد المهاجرون والأنصار عن دين محمد ﷺ، أو ليس قد كانوا على ذلك قادرين؟

قيل له: إن هذا السؤال لا يسأل عنه من فهم ما قلنا، لأنا لم نقل: إن هؤلاء ما ارتدوا من طريق التزكية لهم، ولا من طريق حسن الظن بهم، ولا محاباة لهم، ولا لأنهم ما قدروا على ذلك؛ بل قد كانوا على ذلك قادرين ولكنهم ما اختاروا ذلك ولا فعلوه، كما علمنا أن صاحبهم رسول الله ﷺ ما رجع عما كان عليه وأن كان على ذلك قادراً، وأن عدوه قد ادعى عليه أنه رجع وأظهر الشك فى أمره بقوله: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾[1] وبقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾[2]، وهذا قد ادعاه عليه رؤساء الرافضة الذين قدمنا ذكرهم.

ولا تكون الردة بالقياس فيقال: كما ارتد قوم موسى ينبغى أن يرتد قوم محمد ﷺ؛ هذا لا يظنه إلا الغاية فى الجهل والبله والنقص، وهؤلاء قالوا: كما قتل يزيد بن معاوية الحسين فينبغى أن يكون أبو بكر قد ضرب فاطمة وقتل الحسن.

فالعلم بأنه عليه السلام ما رجع عن دينه وأن أبا بكر وعمر والمهاجرين والأنصار ما رجعوا عن دينه بعده قبل العلم بنبوته وصدقه وأنه دعا إلى حق، والعلم بإقامة أبى بكر وعمر والمهاجرين والأنصار على دينه عليه السلام كالعلم بإقامته هو على ذلك، والعلم بذلك قبل العلم بنبوته.

وما منزلة من ادعى عليهم ذلك إلا كمن قال لنا: كنت بالقسطنطينة من

---

(١) سورة الأحقاف آية ٩ .
(٢) سورة يونس آية ٩٤ .

بلاد الروم فوجدتهم يشتمون بولص ويبرؤون منه ويبصقون[١] على الصليب، فقلنا له: كذبت، فقال: ولم كذبتمونى وما كنتم معى، أو ليس بولص كافر يستحق الشتم ويجب أن يبسق على الصليب ولا يعظم؟ قلنا: وإن لم نكن معك فعقولنا معنا، وعلمنا أن الغلبة هناك لمن يعظم الصليب وبولص.

أو بمنزلة من قال لنا: كنت بالأندلس فوجدتهم يلعنون معاوية ويبرؤون منه ومن مروان بن الحكم وولده كما يفعل ذلك بالكوفة والمدينة، لقلنا: كذبت، فقال: أنتم لم تكونوا معى فصدقونى أو شكوا فى خبرى، قلنا: وإن لم نكن معك فعقولنا معنا، وقد علمنا أن الغلبة هناك لمن يقول بإمامة معاوية ومروان وولده.

فهذه سبيل من ادعى على أبى بكر وعمر والمهاجرين والأنصار ما يدعيه الرافضة.

ومن عجيب أمورهم قولهم: هذا كعبادة قوم موسى العجل، فيجعلون الردة والكفر والإيمان بالقياس، والذى أخبرنا أن قوم موسى عبدوا العجل هو الذى عرفنا بعقولنا أن أصحاب محمد ﷺ أقاموا على دينه والذى عرفنا بالخبر أن يزيد بن معاوية قتل الحسين وأشخص ذريته إلى الشام هو الذى عرفنا بعقولنا أن أبا بكر ما ضرب فاطمة ولا قتل الحسن؛ وهذا فى القياس كمن قال: إذا كان يزيد بن معاوية قد غزا المدينة ومكة واستباحهما أن يكون أبو بكر قد فعل مثل ذلك.

وإذا كان معاوية قد قتل عمار بن ياسر أن يكون أبو بكر قد قتل العباس بن عبد المطلب، وإذا كان معاوية قد قتل ولدين لعبد الله بن العباس أن يكون أبو بكر[٢] قد قتل أربعة أولاد من ولد العباس، وأن يكون عمر وعثمان قد فعلا مثل ذلك، أو كمن قال إذا كان بنو إسرائيل قتلوا الأنبياء أن يكون أصحاب محمد ﷺ قد فعلوا ذلك.

---

(١) فى الأصل ويبسقون.

(٢) في الأصل: أبا بكر.

وقيل أيضاً للرافضة: إذا كان أبو بكر قد ضرب فاطمة وقتل الحسن فقد كان ينبغى أن يحصل العلم بذلك عند كل من سمع الأخبار، وأن يكون العلم بذلك مثل العلم بقتل يزيد الحسين، ومثل قتل معاوية حجر بن عدى، وعبد الله بن زياد مسلم بن عقيل، بل كان ينبغى أن يكون العلم بما ادعيتم أقوى من العلم بهؤلاء القتلى، لأن هذه الحادثة التى ادعيتموها على أبى بكر كانت بالمدينة، وقد شهدها العباس وولده، وعلى بن أبى طالب وولده، وعقيل وولده، وجميع بنى هاشم ومواليهم ونسائهم، وجميع المهاجرين والأنصار وأولادهم ونسائهم؛ وقد كان بالمدينة حين توفى رسول الله ﷺ أكثر من مائة ألف إنسان، فكان يكون العلم بهذا أقوى مما[1] كان بكربلاء.

ولكن دعاوى الرافضة فى ضرب فاطمة عليها السلام وقتل ولدها وأمر أبى بكر خالد بن الوليد بقتل على بن أبى طالب، كدعواهم على رسول الله ﷺ النصوص التى يدعونها، وكل من تأمل أمرهم تبين له بطلان ذلك ووضح له وضوح الشمس.

ومما يزيدك بياناً بشأن هؤلاء الخلفاء والمهاجرين والأنصار ولزومهم لوصايا رسول الله ﷺ، أن عثمان بن عفان لما أتم الصلاة بمنى أنكر عليه للوقت على ابن أبى طالب بحضرة الناس كلهم فقال له: ألم تصل مع رسول الله ﷺ هنا ركعتين؟ قال: بلى، قال أفلم تصل مع أبى بكر ها هنا ركعتين؟ قال: بلى، قال: أفلم تصل مع عمر ها هنا ركعتين، قال: بلى، قال: أفلم تصل بنا شطر خلافتك ركعتين؟ قال: بلى، فلم أتممت، وما عذرك فى ذلك؟ قال: نكحت إمرأة بمكة وسمعت رسول الله ﷺ يقول: من تأهل بأرض فهو من أهلها، ولى مال بالطائف نويت مطالعته؛ وبعد، فقد بلغنى عن طغام من أهل اليمن أنهم قالوا: صلاة المقيم ركعتان، وهذا أمير المؤمنين عثمان يصلى ركعتين.

ولما نهى عثمان عن القران[2] وأمر الناس بإفراد الحج بلغ ذلك علياً،

---

(١) في الأصل: ما.

(٢) أى أن يجمع الحج والعمرة.

فدخل عليه فقال له: بلغنى أنك نهيت من القرآن، ثم قال علىّ: لبيك اللهم لبيك بحجة وعمرة، فقال له عثمان: لم فعلت هذا وقد نهينا عنه؟ قال: ما كنت لأدع شيئاً أجازه رسول الله ﷺ لقول أحد.

ولما ادعى على الوليد بن عقبة عامل عثمان على الكوفة وأخوه لأمه شرب الخمر، قال له علىّ أشخصه فاسمع الشهادة، فأشخصه وسمع الشهادة فجلده علىّ بيده والوليد من أشراف قريش، وقد كان رسول الله ﷺ يستعمله، واستعمله عمر وعثمان، وهو كثير الفتوح فى الإسلام، وهو أخو أمير المؤمنين فما تهيبه.

ولما تكلم من تكلم فى عثمان لأنه ولى أقاربه وآثرهم، وقالوا لعلى إن عمر لم يفعل مثل هذا بأقاربه، فقصده على وقال له: ورائى قوم وقد كلمونى فيك وما أدرى ما أقول لك؟ ما نعرف شيئاً تجهله، ولا ادلك على أمر لا تعرفه، ما سبقناك إلى أمر فنبلغكه، ولا خلونا بأمر فنخبرك به، ولا خصصنا بأمر دونك، وإنك لتعلم ما نعلم، والله ما ابن أبى قحافة بأولى من عمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشئ من الخير منك، أنت أقرب إلى رسول الله ﷺ رحماً وقد نلت من صهره ما لم ينالاه، فالله الله فى أمرك فإنك والله ما تعلم من جهل، ولا تبصر من عمى، وإن الحق لواضح بيّن، وإن أعلام الدين لقائمة.

فقال له عثمان: لقد علمت ليقولن الذى قلت، ولو كنت مكانى ما عتفتك ولا أسلمتك، ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً، وسددت خلة، وآويت ضائعاً، وواليت شبيهاً بمن كان عمر يولى. أنشدك الله يا على، هل علمت أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال: نعم، قال: فهل علمت أن عمر كان يوليه؟ قال: نعم، قال: فلم تلومنى أنت أن وليت ابن عامر مع رحمه وقرابته؟ فقال له علىّ: سأخبرك، إن عمر كان من ولاه فإنما يطأ على سماخه، إن بلغه حرف جلبه وبلغ منه الغاية، وأنت لا تفعل ذلك، ضعفت ورفقت على أقاربك. فقال له عثمان: وهم أقاربك أيضاً، فقال له علىّ: أجل، إن قرابتهم منى لقريبة ولكن الفضل فى غيرهم، قال له عثمان: هل تعلم أن عمر استخلف معاوية؟ قال:

نعم، قال: فقد استخلفته كما استخلفه، قال له على: أنشدك الله، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من أرفا غلام عمر من عمر؟ قال عثمان: نعم، قال له علىّ: فإن معاوية لا يخافك ويقتطع الأمور دونك، ويقول للناس: هذا أمير المؤمنين عثمان.

وكان على يعنفه فى أقاربه، ويقوله له فى وجوههم: لا يغلب عليك مروان والوليد وسعيد، لا تطعهم؛ فيقول أهله له: هذا قوله لك فى وجهك ووجوهنا فكيف بما يقوله للناس من ورائك وأنت إمامه وابن عمه؛ فيقول لهم عثمان: هو أنصح لى منكم.

وكان علىّ رضي الله عنه يوافقه على صغار الأمور وكبارها ويدبر أمره، فإذا لم يقبل منه فى أمر من الأمور عنفه ولامه وقعد عنه، فيرسل إليه عثمان ويجىء به، فيقول له: قعدت عنى وكنت لأبى بكر وعمر أنصح، وأنا أولى بذلك منك، وأنا إمامك وابن عمك، فيقول له علىّ: كانا يقبلان ولا تقبل، أكون معك على أمر فيجيئك مروان وسعيد والوليد فيزيلانك عنه.

ثم يقول علىّ رضي الله عنه للناس: من عذيرى من هذا؟ أكون معه على أمر فيدع رأيى ويأخذ برأى مروان والوليد، فإن قعدت عنه يشكونى ويقول: قطعت رحمى ولم تقض حق بيعتى.

فانظر كيف يصنع به الأمور الصغار التى غيرها أولى، ويأخذه بما هو أفضل، ويشير عليه أن يسير سيرة أبى بكر وعمر، وأن يأخذ بالفضل ولا يترخص ولا يزول من سيرتها، فأى عاقل تدبر وفكر يقع له أن هؤلاء كانوا يظلمون بنت رسول الله ﷺ ويبدلون القرآن ويعطلون النصوص ويغيرون الشريعة فيسكت عنهم.

وبمثل هذا كانت تشير عليه عائشة رضى الله عنها، وتحذره مخالفة سيرة أبى بكر وعمر، وبهذا كتبت إليه أم سلمة: أى بنى، ما لى أرى رعيتك عنك مزورين، وعن جانبك نافرين، لا تعف سبيلاً كان رسول الله ﷺ يحبها، ولا تقدح بزند كان أكباها، وتوخ حيث توخى صاحباك فإنهما ثكما الأمر ثكماً ولم يظلما والسلام. فأجابها بالجواب المعروف.

وعتب قوم عليه أن حمى الحمى، وما رآه فى خمس أفريقية لما فتحها، وفيمن سيره من اللعّابين بالحمام والرامين بالجلاهين فيما كان فى الكتاب المنسوب إليه فى شأن محمد بن أبى بكر الصديق والنفر المصريين؛ وهى كانت الطامة فى السخط عليه والنكير له، وما أقر بأنه كتب الكتاب ولا قامت عليه بينة، فقالوا: كاتبك كتبه فما أقر كاتبه، وقال لهم: الخط قد يشبه الخط، فلم يزل الإنكار عليه فى هذه الأمور إلى أن اغتيل بالسحر وقتل.

وليس فى هذه تعطيل نص ولا تبديل قرآن ولا تغيير شريعة، وإنما هى أمور من طريق الرأى والاجتهاد كان له أن يفعلها فجرى عليه، هذا كله فى شئ هذه سبيله، وهو الخليفة والسلطان والملك، وإليه السوط والعصا وبيده الضر والنفع، مع شرف رهطه وقرب قرابته وظهور ثروته وكثرة عدوه وأعوانه ومن تعصب له، فكيف يتوهم عاقل تدبر، أن النصوص كانت تعطل والقرآن يغير والشريعة تبدل وهم سكوت.

وهذا على بن أبى طالب مع فضله وزهده وعلمه وسوابقه وآثاره الجميله فى الإسلام وقريب قرابته، قد أنكروا عليه أن ولى أقاربه، فقيل له: علام قتل عثمان بالأمس؟ أى لأنه ولى أقاربه، فقال لهم: ما علمت إلا خيراً، فإن أنكرتم فأنكروا. ولما بعث الحكم ارتدوا عنه، وقالوا: ضعفت وحكمت الرجال فى دين الله وما كان ذلك لك، وشككت فى نفسك؛ فتب إلى الله وإلا قاتلناك وجاهدناك، أو تقتلنا أو نقتلك. فقال لهم: لو كانت الحكومة معصية لما جئت إليها وكان لى أن أحكم، وقد أمر الله بالحكومة فى شقاق يكون بين المرأة وزوجها وفى أرنب تصاب فى الحرم تساوى ربع درهم؛ فقال عز وجل: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾، فكيف بإمامة قد اشكلت على المسلمين.

فقاتلوه وقاتلهم، وقتلهم وقتلوه، فى أمر ليس فيه تعطيل نص ولا تغير قرآن، وإنما هو شئ من طريق الاجتهاد، وكان له رضى الله عنه أن يفعله. وقد بلغوا فى الإنكار عليه هذا المبلغ، فكيف بتغير القرآن والنصوص وظلم ابنة رسول الله ﷺ، لتعلم فحش غلط هؤلاء القوم، وأن أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضى الله عنهم لو راموا بأجمعهم تعطيل نص لرسول الله، أو تغير آية

واحدة من كتاب الله، أو ظلم إمرأة أرملة ذمية لقتلوا بأجمعهم. وقد عرف أهل العلم والتحصيل، أن أهل البصائر، ومن يعتقد دين محمد ﷺ ونبوته وصدقه وإجلال من أجل وتعظيم من عظم وإهانة من أهـن فى زمن أبى بكر وعمـر أكثر وأوفر، والغلبة لهم، والأمر بأيديهم، وهم كانوا الظاهرين القاهرين، وهم ولوا أبا بكر وعظموه واجلوه وقدموه تقرباً إلى الله، لأن رسول الله قد كان يقدمه ويعظمه ويجله ويكرمه؛ ولهذا كان يقول الرؤساء فى ذلك الزمان من أقارب رسول الله ﷺ، وقد رأوا تعظيم المهاجرين والأنصار أبا بكر، وطاعتهم له، وتنفيذهم وصاياه ووصايا خليفته بعده: كان والله حلواً فى أفواههم، جليلاً فى أعينهم، مهيباً فى صدورهم، على سكون ريحه ولين جانبه. فلا تظن ما يقول طوائف الإمامية والرافضة فيهم إلا الغاية فى الغفلة وترك النظر؛ وتعليل الرجال هو الذى يوقع الناس فى الضلال.

وباب آخر

إن بين أبى بكر وعمر وتلك الجماعة وبين بنى هاشم مع أخوة الإسلام فضل مودة وصداقة، يمدح بعضهم بعضاً ويزكى بعضهم بعضاً، ويتصاهرون، ويرى بعضهم بعضاً أهلاً للإمامة والولاية، وينصح بعضهم بعضاً.

ألا ترى أنهم بايعوا أبا بكر، وصلوا خلفه، وغزوا معه، ونفذوا وصيته بعد موته فى عمر، فاجتمعوا كلهم، فى طاعته؛ ونفذوا وصايا عمر بعد موته وصلوا خلف صهيب، ورجعوا إلى عبد الرحمن كما وصى، فغزا أمير المؤمنين على بن أبى طالب مع أبى بكر رضى الله عنهما الربذة وإلى ذى القصة. ولما هم أبو بكر بالخروج عن المدينة والمسير إلى أهل الردة، أخذ أمير المؤمنين على بعنان فرسه وقال له: أقول لك كما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد: سمّ سيفك، وارجع مكانك، ومتعنا بنفسك، وأنا أقول لك: أنقذ جيشك وارجع إلى المدينة، فإنك إن هلكت لم يكن للإسلام بعدك نظام، فقبل رأيه ورجع.

وقد غزا واحد من بنى هاشم فى زمن عمر، وفى غزواته هلك الفضل بن العباس بالشام فى طاعون عمواس فى خلافة عمر، وقد خرج العباس معه إلى الشام وغيره من بنى هاشم، وخلف علياً أميراً على المدينة فى بعض

خرجاته إلى الشام، فإنه خرج إليها أربع مرات، فدخلها فى بعضها، وفى بعضها لم يدخل، وزوجه أمير المؤمنين علىّ ابنته أم كلثوم وأمها فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وكان له منها زيد ورقية.

وقبل ذلك ما زوج رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق أسماء بنت عميس الخثعمية، وكانت تحل من رسول الله ﷺ محل ابن الأخوات وتختص به وبنسائه وتكون في بيوته. وكانت من المهاجرات بدينها إلى أرض الحبشة وإلى المدينة، وكانت قبل ذلك إمرأة جعفر بن أبى طالب، وكان له منها غير واحد من الأولاد، فجعل رسول الله ﷺ أبا بكر كافل بنى هاشم ومربى أبنائهم، فربّى أولاد جعفر بن أبى طالب وكفلهم وأدبهم، منهم: عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وأخوه محمد. وكان عبد الله بن جعفر يذكر من برّ أبى بكر بهم ورأفته وتأديبه لهم ما يطول شرحه.

وخلف أمير المؤمنين على وعمر على المدينة فى خروجه إلى جسر مهران، وأشار عليه حين تكاتبت الأعاجم بإخراج المسلمين من ديارهم؛ وكان يزدجرد بن شهريار ملك فارس الذى أخرجه عمر من ملكه حياً مقيماً عند خاقان ملك الترك وقد صاهره يستعينه على المسلمين، فراسل أهل مملكته بإخراج المسلمين من ديارهم، وأنه يوافيهم فى الجيوش ويسير إلى المدينة فيقتل عمر ويستأصل الإسلام.

فكتب المسلمون الذين فى ممالك الفرس إلى المسلمين بالكوفة بهذا، وكتب أهل الكوفة إلى أمير المؤمنين عمر، فخطب الناس وقال: أيها الناس، إن الشيطان قد جمع جموعه، وإن الأعاجم من أهل جرجان وطبرستان والرى وأصفهان وهمدان ونهاوند، قد تكاتبوا وتعاهدوا فى إخراج المسلمين من ديارهم وقصدهم إلى بلادكم، وهذا يوم له ما بعده، فأشيروا علىّ.

فقام طلحة بن عبد الله، فقال: فجزاه خيراً ثم أمره بالجلوس، ثم قال: أشيروا علىّ، فقام عثمان بن عفان، فقال: أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهل اليمن فيسيروا إليك من يمنهم، وإلى أهل الشام فيسيروا إليك من شامهم، وتسرى بأهل هذين الحرمين وأهل المصرين: الكوفة والبصرة، وتلقى

العدو بنفسك، فإذا رآك فى جموعك وعساكرك هاله أمرك، وقل هو وجيوشه فى أعين المسلمين، ففعلت وفعلت، فجزاه خيراً وأمره بالجلوس، ثم قال: أشيروا علىّ، فقام على بن أبى طالب، فقال له: يا أمير المؤمنين، أما ما كرهته من مسيرهم فإن الله عز وجل لذلك أكره، وإنك يا أمير المؤمنين إن سيرت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ديارهم، وإن سيرت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ديارهم، وإن سرت بأهل الحرمين انتقضت العرب عليك، فكان ما وراءك أهم لك مما بين يديك، وإن رآك العدوّ ازداد كلبه عليك وقال لأصحابه: هذا واحد العرب فإن قطعتموه قطعتم العرب كلها، ولكن أرى أن تكتب إلى أهل اليمن، فيكون ثلثهم فى أهل عهدهم وثلث فى ثغورهم ويسير منها الثلث إليك، وتكتب إلى أهل الشام بمثل ذلك، وتقيم بمكانك وتنفذ أميراً يلقاهم، فإن هلك أنفذت أميراً مكانه، فقد علمت أنّا كنّا فى زمن رسول الله ﷺ نقاتل بالبصيرة لا بالكثرة، فجزاه خيراً وأمره بالجلوس.

ثم قال: هذا والله هو الرأى؛ إن أنا أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ديارهم، وإن سيرت أهل الشام من شامهم سارت الروم إليهم، هذا والله هو الرأى إن ساعدتمونى عليه، فقالوا: نساعدك، فعمل على ذلك، وأنفذ الجيش، وأقام على ما أشار عليه علىّ؛ وكم له معه مثل هذا، وشرحه يطول.

وكم قد أشار عليه العباس ونصح له مما هو مذكور معروف عند العلماء، وكم قد أشاروا جميعاً على عثمان وغيرهما من بنى هاشم، وكم قد غزا الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن العباس، وغيرهم من بنى هاشم مع أمراء عثمان إلى خراسان وغيرها، وكم كان يقول عمر على المنبر: أقضانا علىّ، ويقول: لا تكون نازلة لا يشهدها على بن أبى طالب؛ وولاه القضاء بالمدينة، وتولى، فكان يقضى ويفتى، واستسقى بالعباس، وألحق الحسن والحسين فى العطاء بالبدريين.

ولما دوّن الدواوين، كتبوا اسمه فى أول الديوان، فقال لهم: لم فعلتم هذا؟ فقالوا له: أنت أمير المؤمنين، فقال: ابدؤوا بطرفى رسول الله ﷺ:

هاشم وزهرة، وضعوا عمر وآل عمر حيث وضعهم الله، وأدخل علياً فى الشورى: وكان لعلى فى أولاده من يسمى أبا بكر وعمر وعثمان كما يسمى الرجل أولاده بأسماء أحبابه وأئمته، وقد كان للحسين عليه السلام ولد يقال له أبو بكر قتل معه بكربلاء، وكان لعلى بن الحسين ولد اسمه عمر، وقد كان فى أولادهم مثل هذا كثير، وشرح هذا يطول، وكذلك شرح ما كان بينهم من المودة والصداقة وحراسة بعضهم لبعض، ومدح بعضهم لبعض يطول، وللعلماء فيه كتب مفردة مخلدة، أنت تجدها إذا طلبتها.

ولكن طال العهد وغلب الجهل، فظن من لا علم له أنهم كانوا متباعدين متباغضين، وأن الذى كان بينهم من العداوة والبغضاء أشد مما كان بينهم وبين معاوية وولده ومروان بن الحكم وولده كما ظنت المنانية ومن ذهب مذهبها، أن عيسى بن مريم[1] عليه السلام كان عدواً لموسى وهرون وداود وسليمان، وأنه كان يحرم أكل اللحمان وذبح الحيوان، وكما يظن من لا يعلم أن هذه الطوائف من النصارى على دين المسيح وفى طاعته. وللبغضاء رحمك الله حال مبينة، وللمحبة آثار وأعلام.

ألا ترى أن معاوية وآل أبى سفيان وآل مروان، لمّا أبغضوهم وعادوهم، ما ذكروهم فى الإمامة ولا رجعوا إليهم فى القضاء والفتوى، بل لعنوهم وحاربوهم وقتلوهم، ووصوا أولادهم بذلك، وكذا فعل بنو هاشم من ولد العباس وولد أبى طالب ببنى أمية.

فإن قالت الرافضة: إنما صنع أبو بكر وعمر هذا ببنى هاشم حيلة وخديعة وليخرجوهم من الرئاسة، قيل لهم: من الحيلة والخديعة أن لا يدخلوهم فى الشورى، ولا ينبهوا عليهم فى الرئاسة ولا يستسقوا بهم، ولا يستشفعوا إلى الله بجاههم ومكانهم، ولا يشهدوا لهم بالجنة، ولا يسيروا إليهم بالعلم والمعرفة، ألا ترى أن معاوية لما عاداهم ما جعلهم أهلاً للخلافة، ولا ذكرهم للرئاسة ولا استسقى بهم، ولا استفتاهم، ولا استقضاهم، ولا شهد

(١) فى الأصل بعد كلمة مريم لفظة كان، وهى زائدة.

لهم بالجنة، بل كانت سيرته فيهم ما قد علم الناس؛ ولا فرق بين من ادعى هذا، أو ادعى أن ما كان من مدح رسول الله ﷺ لأهله وأصحابه إنما كان على طريق المداراة والخديعة، أو ادعى أن ما كان من معاوية (مع) آل بنى هاشم إنما كان على طريق الرأفة والرحمة.

وبعد فما لأبى بكر وعمر على قولكم إلى مداراة الناس وخديعتهم فى بنى هاشم، وعندكم أن الناس قد علموا أن رسول الله ﷺ قد استخلف علياً ونص عليه، وعرف الكافة أنه الحجة على العالم، ثم أن أبا بكر دعاهم إلى خلاف ذلك فأجابوه بأسرهم على قول بعضكم وهم الكاملية، وعلى قول الهاشمية أجابوه إلا نفراً يسيراً كانوا مغلوبين، ودعاهم هو وعمر بعده وعثمان بعدهما إلى تغيير القرآن والشريعة، من الطهارة، والآذان، والصلاة ومواقيتها، والصيام ومواقيته، والمواريث، والمناكح، والطلاق، والعتاق، إلى غير ذلك، فأجابوهم إليه.

وما سمع الناس بأعجب من أمر هؤلاء القوم فى دعواهم على أبى بكر وعمر، أنهم إنما زكوا بنى هاشم مثل العباس وعلى وغيرهما، وأدخلوهم فى الشورى، وقعدوهم فى القضاء والفتوى والرئاسة، للنقص منهم، والحيلة عليهم؛ وهو كمن قال: ان ابا بكر وعمر وعثمان أخذوا الروم والعجم وملوك العرب بالدخول فى دين النبى ﷺ، وإدخال أممهم فى دينه، والشهادة برسالته، وإقامة شرائعه، وموالاة أوليائه، ومجاهدة أعدائه، إنما فعلوا ذلك عداوة له ﷺ، وللحيلة عليه، وإخراجه من الرئاسة والنبوة، ولإماتة ذكره، وكل أمرهم عجب وخروج عما يعقل ويفهم.

فإن قالوا: إنما أدخله عمر فى الشورى وقال يصلح للخلافة والرئاسة ليمحو نص النبى ﷺ واستخلافه له، قلنا: فإن ذلك قد أمحى على قولكم وأجابه الناس إلى محوه وإزالته، فما حاجته إلى إدخاله فى الشورى لولا محبته له والتنبيه على فضله.

ولو أراد أن يخرجه من الرئاسة لما أدخله فى الشورى، ولا قال أنه يصلح

للخلافة والرئاسة؛ وإنما الشورى وضعها عمر ليطلب الناس من يصلح فى دين رسول الله ﷺ للقيام بأمر أمته عليه السلام، وليرجعوا إلى وصاياه وعهوده فيمن يصلح لذلك فى دينه وشريعته؛ فلو كان هناك منصوص عليه، أو من فيه أدنى إشارة، لما أدخله عمر فى الشورى والرئاسة إن كان يريد أن يميت ذلك على ما يدعونه عليه، وهذا لا يظنه عاقل، وهو كمن قال إنما استسقى بالعباس واستشفع إلى الله به ليميت ذكره وليخرجه من الفضل والرئاسة ومن استخلاف النبى له ونصه عليه.

فإن الراوندية من شيعة بنى العباس تدعى أن النبى ﷺ نص على العباس واستخلفه وجعله وارث مقامه، وأن الخلافة تكون فى ولده إلى يوم القيامة، كما تدعى ذلك الرافضة فى أمير المؤمنين.

وبعد فإن كان الذى صنعه عمر فى الشورى حيلة على أمير المؤمنين ليخرجه من الرئاسة، فلم دخل هو وقبله، وصلى خلف صهيب، ورجع إلى عبد الرحمن فى الاختيار، فكيف شعرتم أنتم بهذا وخفى عليه.

فإن قالوا: فعل هذا خوفاً وتقية فقد بين أن سلطان هؤلاء الخلفاء الأربعة ما كان سلطاناً يخافه محق ولو كان عبداً أو ذمياً، وكشفنا ذلك من غير وجه. واعلم أن الكلام إذا انتهى إلى مثل هذا فليس إلا السكوت، فإن شرح المشروح والمجاذبة فى أمر المكشوف عناء وإدخال له فيما يغمض ويخفى.

فارجع رحمك الله إلى ما كان من أبى بكر وعمر وقول بعضهم فى بعض وصنع بعضهم بعض، تجدهم أولياء وإخواناً وأصدقاء، وقد تقدم لك فى صدر هذا الكتاب أن أبا بكر وعمر وتلك الجماعة من المهاجرين والأنصار كانوا أحباب رسول الله ﷺ، وكان يحبهم ويودهم، ويوجب على الناس محبتهم، ويفرض عليهم مودتهم، وكانوا يحبونه، وهو أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، ويحبون من أحبّ، ويبغضون من أبغض، وإن العلم بذلك قبل العلم بنبوته، فارجع إليه.